الصفة فائدتها وصورها

د. صبحي رشاد عبد الكريم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، سيدنا محمد بن عبد الله . وبعد :

فهذا بحث حول « الصفة فائدتها وصورها » والحديث عنها ذو فنون حيث تتبوأ مكانا عاليا فى كلام العرب ، فلها دور بالنسبة لأركان الجملة الأساسية (المسند اليه والمسند) وللمتعلقات أيضا ودورها هذا تؤديه بأثواب شتى ، ومعارض عديدة فهى تأتى مفردة ، وجملة ، وتأتى نكرة ومعرفة ، وتأتى متقدمة على الموصوف ومتأخرة عنه .

وتذكر تارة ، وتحذف أخرى ، وتطابق الموصوف كثيرا وتخالفه نادرا ، والصفة فى مجاليها العديدة ، ومعارضها الجمة ، تحديد للموصوف دقيق ، وتفصيل له ، وبيان وتعريف به ، واعراب عنه اذ هو مختلف ومتنوع أيضا فاذا كان نكرة يحتاج الى صفة وكثيرا ما تحتاج المعرفة اليها أيضا .

ولأنها كذلك لا يستغنى تعبير عنها فهى زينة المدح والفخر ، وهى دعامة فى الهجاء والذم ، فهى سائرة على لسان كل متحدث ، ضابطة لقوانين وتعريفات وحدود كل عالم .

فساعة الجد تجد فخامة الصفة ودقتها ، ووقت الهزل تجد دعابة الصفة وطرافتها(١) .

---

(١) قام عمود الشعر على شرف المعنى وصحته : وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة فى الوصف ـ والمقاربة فى التشبيه .. (المرزوقى)

فالوصف ريشة الأديب يعرب به عن نفسه ويتحدث به عن خواطره ويلون به صوره فكل شيء في حياتنا نصفه ونلونه ٠

ولأمر ما حجب الله عنا ذاته بحجاب النور ، وتجلى لنا بصفاته فدل خلقه بصفاته عليه وعرفهم ، وأوضح الطريق لهم وبصرهم ،وفي ذلك تأنيس للنفس باخراجها من الخفاء الى الجلاء ومن الغيب الى الشهادة ، ومن الغموض الى الوضوح « فأسماؤه سبحانه هي الدالة عليه ، وتتنوع كمالات الذات في الصفات لأنها أول ظاهر من مجالي الحق سبحانه وتعالى، فليس بعد الصفات في الظهور الا الذات »(٢) ٠

وأنت واجد حديث الصفة كما يطالعك في كون الله وكتابه ، فهو أيضا دوى الصوت في حديث العلماء وكتبهم وهذه صورة وان صنعت على عجل وما هكذا في البحوث العلمية تورد الابل الا أنها بعون الله ستكون فاتحة خير لمن يتابع على دربها وتكون قلادة الجيد لمن أراد التحلي بها فهو بداية المجتهد وليس في هذا العلم اقتصاد ٠

بيد أن هناك أمرا هاما هو أن الصفة بالمعنى البلاغي عامة فالخبر صفة في المعنى للمبتدأ ، والحال وصف لصاحبها يبين هيئته ، والتمييز أيضا برفع الابهام فهو يسمى « تمييز ومميز وتبيين ومبين وتفسير ومفسر »(٣) ٠

ونحن في باب (القصر) نقصر الصفة على الموصوف والصفة في هذا الباب هي الصفة المعنوية لأنه لاقصر بين الصفة النحوية

---

(٢) الأنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي /٧ ط /٤ مصطفى الحلبي بتصرف ٠

(٣) شرح الأشموني ١٩٤/٢ ٠

وموصوفها (٤) والقصر يتأتى بين الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر أقول حديثنا فى هذا البحث يقتصر على الصفة الواقعة نعتا للموصوف أى الصفة النحوية ، وهو يعالج مسائل هامة وطريفة .

المسألة الأولى :

الصفة والنعت :

أما الوصف فهو « ذكر الشىء بحليته ونعته ، والصفة : الحالة التى عليها الشىء من حليته ونعته كالزنة التى هى قدر الشىء ، والوصف قد يكون حقا وباطلا ، قال : « ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام » تنبيها على كون مايذكرونه كذبا ، وقوله عز وجل : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » تنبيه على أن اكثر صفاته ليس على حسب مايعتقده كثير من الناس لم يتصور عنه تمثيل وتشبيه ، وأنه يتعالى عما يقول الكفار ولهذا قال عز وجل « وله المثل الأعلى »،ويقال اتصف الشىء فى عين الناظر اذا احتمل الوصف ووصف البعير وصوفا اذا أجاد السير ، والوصيف الخادم والوصيفة الخادمة ، ويقال وصف الجارية » (٥)

والفرق بين صفة الشىء وهيئته « ان الصفة من قبيل الأسماء . واستعمالها فى المسميات مجاز وليست هيئة الشىء كذلك ولو كانت هيئة الشىء صفة له لكان االهىء له واصفا له .. والهيئة أمر لابد منه للشىء أما الحلية فهى هيئة زائدة على الهيئة التى لابد منها كحلية

---

(٤) فليست بينهما نسبة تامة يكون فيها اثبات ونفى فلا نستطيع أن نقول ماجاء محمد الا العاقل فى « جاء محمد العاقل »

(٥) المفردات للراغب /وصف /٢٥٥ ط الحلبى .

السكين والسيف انما هى هيئة زائدة على هيئة السكين والسيف ، وتقول حليته اذا هيئته هيئة لم تشمله بل تكون كالعلامة فيه ومن ثم سمى الحلى الملبوس حليا ٠٠ أما الصورة فهى اسم يقع على جميع هيئات الشيء لاعلى بعضها ويقع أيضا على ماليس بهيئة ألا ترى أنه يقال صورة هذا الأمر كذا ولايقال هيئته كذا ٠ وانما الهيئة تستعمل فى البنية »(٦)

والنعت وصفك الشيء تنعته بما فيه ، وتبالغ فى وصفه ،والنعت مانعت به ونعته ينعته نعتا : وصفه ٠٠٠ والنعت من كل شيء جيده وكل شيء كان بالغا تقول : هذا نعت أى جيد ٠٠ قال ابن الأعرابى : أنعت : اذا حسن وجهه حتى ينعت ، وفى صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ناعته :

« لم أر قبله ولا بعده مثله »

وقال ابن الأثير : النعت وصف الشيء بما فيه من حسن ، ولايقال فى القبيح الا أن يتكلف متكلف ، فيقول : نعت سوء والوصف يقال فى الحسن والقبيح ٠ (اللسان / نعت)

والحق أن الصفة والنعت واحد وعلى ذلك نسير رغم أن البعض يرى أن النعت يكون بالحلية نحو طويل وقصير ، والصفة لفظ يتبع الموصوف فى اعرابه تحلية وتخصيصا له بذكر معنى فى الموصوف او فى شيء من سببه ، وذلك المعنى عرض للذات لازم له ٠

ولما كان الأصل فى الأعلام أن يكون كل اسم بازاء مسمى فان تلك المسميات تنفصل عن بعضها بالألقاب ، لذلك قال الزمخشرى معرفا النعت « هو الاسم الدال على بعض أحوال الذات ، لأنه لما ازدحمت

---

(٦) الفروق للعسكرى ١٣٢ نشر دار الكتب بيروت ٠

المسميات بكثرتها فحصل اشتراك عارض فأتى بالصفة لازالة تلك الشركة ونفى اللبس .

الغرض من النعت أو فائدته :

للصفة أغراض كثيرة الا أن النحويين وقفوا عند أهم ما تصنعه الصفة فى النكرة والمعرفة « فصفة المعرفة للتوضيح والبيان ، وصفة النكرة للتخصيص » وهو اخراج الاسم من نوع الى نوع أخص منه ، فهى ترفع الاشتراك اللفظى فى المعارف « فالذى تساق له الصفة هو التفريق بين المشتركين فى الاسم ، وهى تقلل الاشتراك المعنوى فى النكرات « فهى فى الأول جارية مجرى بيان المجمل ، وفى الثانى جارية مجرى تقييد المطلق »

« ولما كان الغرض بالنعت ماذكرناه من تخصيص النكرة ، وازالة الاشتراك العارض فى المعرفة وجب أن يجعل للمنعوت حال يعرى منها مشاركة فى الاسم ليتميز به وذلك يكون على وجوه اما بخلقه نحو طويل وقصير وأبيض وأسود ونحوها من صفات الحلية واما بفعل اشتهر به وصار لازما له ، وذلك على ضربين آلى وهو ما كان علاجا نحو قائم وقاعد وضارب وآكل ونحوها ، ونفسانى نحو أحمق وعاقل وسقيم وصحيح وفقير وغنى وشريف وظريف ووضيع ومكرم ومهان اذا اشتهر بوقوع ذلك به ، واما بحرفة أو أمر مكتسب نحو بزاز وعطار وكاتب ونحو ذلك ، واما ينسب الى بلد أو أب نحو قرشى وبغدادى وعربى وعجمى ونحو ذلك من الخاصة التى لاتوجد فى مشاركة » (٧)

---

(٧) ابن يعيش ٣/٤٧

هذا هو أصل وضع النعت توضيح المعارف وتخصيص النكرات وهو المقصود منه أصالة اتمام متبوعة ٠

فالنعت تابع متم ماسبق بوسمه أو وسم مابه اعتلق

قال الأشمونى « المراد بالمتم : المفيد مايطلبه المتبوع بحسب المقام وقد لايرد النعت لذلك وانما يأتى لأمور أخرى نذكر بعضها منها أنه يساق للتعظيم والثناء ٠

كالأوصاف الجارية على القديم سبحانه فلا يقال فيها أنها للبيان والايضاح وانما هى للتمجيد والتعظيم والثناء على الله تعالى ثم يستتبع ذلك الرهبة والخشية من صفات الجلال ، وطلب الزلفى والأعانة والأمل فى الرحمة من صفات الجمال وبضد ذلك تأتى الصفة أيضا ٠

للذم والأهانة والتحقير كما فى قولنا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠ وفى ابن يعيش « وقد يجىء النعت لمجرد الثناء والمدح ، أو ضدهما من زم وتحقير ، وتعريف المخاطب من أمر الموصوف مالم يكن يعرفه وذلك نحو قولهم : جاءنى زيد العاقل الكريم الفاضل تريد بذلك تنويه الموصوف والثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة ٠

ومن ذلك صفات البارى سبحانه نحو الحى العالم القادر لاتريد بذلك فصله من شريك الله (تعالى عن ذلك) وانما المراد الثناء عليه بما فيه سبحانه على جهة الاخبار عن نفسه بما فيه لمعرفة ذلك والندب اليه

ونحن نعلم أن كل صفة تحتها معنى حتى وان تقاربت الألفاظ فنحن لا نشك فى أصل الافتراق ولذلك قال تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى ، فرق بينهما فرقا يدل على التفاوت ، وان كان كل واحد من الرداء والازار زيفة للأنسان ولكن الرداء أشرف من الازار ٠

وكذلك جعل مفتاح الصلاة الله أكبر ، ولم يقم عند زوى الأفهام الناقدة الله أعظم مقامه ، وكذلك العرب فى استعمالها تفرق بين اللفظين اذ يستعمل الكبير حيث لايستعمل العظيم ولو كانا مترادفين لتواردا فى كل مقام ، تقول العرب : فلان أكبر سنا من فلان ، ولاتقول أعظم سنا وكذلك الجليل غير الكبير والعظيم ، فان الجلال يشير الى صفات الشرف ولذلك لايقال فلان أجل سنا من فلان ويقال أكبر سنا ، ويقال : الفرس أعظم من الانسان ولايقال أجل من الانسان ، وعلى الجملة يبعد الترادف المحض فى الأسماء الداخلة فى التسعة والتسعين لأن الأسامى لاتراد لحروفها ومخارج أصواتها ، بل لمفهوماتها ومعانيها فهذا أصل لابد من اعتقاده » المقصد الأسنى للغزالى /٢٧ ، ٢٨

ولكل وصف أثر وثمرة وحظنا من أوصاف الله تعالى كثير اذ لاتتأتى سعادة العبد وكماله الا بالتخلق باخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته بقدر مايتصور فى حقه ، فحظنا منها معرفتها على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يزداد المرء يقينا ، ثم استعظام ماينكشف من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوق الى الاتصاف بما يمكن من تلك الصفات للتقرب من الحق قربا بالصفة فنأخذ من الاتصاف بها شبها من الملائكة المقربين ، ثم السعى فى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلى بمحاسنها وبه يصير العبد ربانيا أى قريبا من الرب تعالى ،ولن يتصور أن يمتلىء القلب باستعظام صفه واستشرافها الا ويتبعه شوق الى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلى بذلك الوصف ان كان ذلك ممكنا » وقد وضح الغزالى حظ المسلم من كل صفة أو اسم من أسماء الله . اذ يقول مع كل صفة وحظ

العبد من اسم كذا كذا بعد أن يعرفه ويشرحه اقرأ قوله في اسم الله المؤمن :

« هو الذى يعزى اليه الأمن والأمان بافادته أسبابه وسده طرق المخاوف ولايتصور أمن الا فى محل الخوف ، ولاخوف الا عندا مكان العدم والنقص والهلاك ، والمؤمن المطلق هو الذى لايتصور أمن وأمان الا ويكون مستفادا من جهته وهو الله تعالى ، ثم يقول بعد هذا : حظ العبد من هذا الوصف أن يأمن الخلق كلهم جانبه ، بل يرجو كل خائف الاعتضاد به فى رفع الهلاك عن نفسه فى دينه ودنياه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه) وأحق العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله » (٨)

والكلام فى صفات الله تعالى يحتاج الى افراد حديث عنها أرجو أن يكتب الله التوفيق له فلله الأسماء الحسنى قال البيضاوى « لأنها داله على محاسن المعانى » وقال فى قوله « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » قال الجامع للكمالات بأسرها فانها راجعة الى الكمال فى القدرة والعلم .

وفى تفسير قوله تعالى « أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » يقول وكان أصل الكلام أياما تدعو فهو حسن فوضع موضعه فلهالأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ماهو الدليل عليه وكونه حسنى لدلالتها على صفات الجلال والأكرام .. وقد ذكر الغزالى - رحمه الله - أنه انما حمله على ذكر هذه التنبيهات ردف هذه الأسامى والصفات قول

---

(٨) المقصد الأسنى للغزالى /٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخلقوا بأخلاق الله تعالى » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان لله تعالى كذا وكذا خلقا من تخلق بواحد منها دخل الجنة »

وفي تفسير قوله تعالى « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير » يقول : لعل تخصيص الوصفين الأولين (العزيز العليم) لما في القرآن من الأعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة الغالية ـ وجاءت الصفات الأخرى ـ ، لتحقيق مافيه من الترغيب والترهيب والحث على ماهو المقصود منه ، وتوسيط الواو بين الأولين (غافر الذنب وقابل التوب) لافادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة ، أو تغاير الوصفين اذ ربما يتوهم الاتحاد ، أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون الذنب باق وذلك لمن لم يتب فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له .. وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها » (٩)

وفي القرآن الكريم ظاهرة كلية نبه اليها الزركشي في البرهان ، هي أن كل ما في القرآن من الذى والذين يجوز فيه الوصل بما قبله نعتا والقطع على أنه خبر الا في سبعة مواضع فانه يتعين الابتداء بها :

ثلاثة في البقرة :

« الذين آتيناهم الكتاب يتلونه » ، « والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه » ، « الذين يأكلون الربا »

---

(٩) تفسير البيضاوى / ٦٠٨

وواحد فى براءة « الذين آمنوا وهاجروا » وواحد فى الفرقان « الذين يحشرون » وواحد فى غافر « الذين يحملون العرش »

فيوقف قبل هذه الآيات حيث تم الكلام الأول ، وفيما عداها قال فى الكشاف يجوز أن يقف القارىء على الموصوف ، ويبتدىء (الذى) ان حمله على القطع بخلاف ما اذا جعلته صفة .

وقال الرمانى « الصفة ان كانت للاختصاص امتنع الوقف على موصوفها دونها ، وان كانت للمدح جاز لأن عاملها فى المدح غير عامل الموصوف » وقد تفيد الصفة :

التعليل للفعل والمبالغة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من اقتطع حق امرى مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة، فقال الرجل وان كان شيئا يسيرا قال وان كان قضيبا من أراك قال الشوكانى : فقوله وان كان قضيبا من أراك مبالغة فى القله فان استحقاق النار يكون بمجرد اليمين فى اقتطاع الحق وان كان شيئا يسيرا وفى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحلف عند هذا المنبر عبد ولا أمة على يمين ولو على سواك رطب الا أوجب الله له النار » قال « انما خص الرطب لأنه كثير الوجود ولايباع بالثمن وهو لايكون كذلك الا فى مواطن منابته بخلاف اليابس فانه قد يحمل من بلد الى بلد فيباع »

فالصفة هنا دلت على خصيصة فى الشىء لم تكن بدونها

وفى الحديث الشريف « من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرى مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان » قال : « التقييد بالمسلم ليس لاخراج غير المسلم بل كأن تخصيص المسلمين بالذكر لكون

الخطاب معهم ، ويحتمل أن تكون العقوبة العظيمة مختصة بالمسلمين وان كان أصل العقوبة لازما فى حق الكفار ٠

فذكر الصفة قد يكون جريا على العادة لأن ذلك هو الشائع والغالب كما فى قوله تعالى « وربائكم اللائى فى حجوركم » لأن في الكثير والغالب أن تكون الربيبة كذلك ، وفى الحديث « لايحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث » قال : فيه دليل على أن الكافر يحل دمه بغير الثلاث المذكورة لأن التوصيف بالمسلم يشعر بأن الكافر يخالفه فى ذلك ولايصح أن تكون المخالفة الى عدم حل دمه مطلقا ٠ (١٠)

وتقيد اصفة المبالغة فى المدح والذم ، كما نقول : مررت برجل أى رجل وأيما رجل ، وبرجلين أى رجلين وأيما رجلين ٠٠ أرادوا بذلك المبالغة فأى هنا ليس بمشتق من معنى يعرف وانما يضاف الى الاسم للمبالغة فى مدحه مما يوحيه ذلك الاسم فكأنه قلت كامل فى الرجولية، فالمراد هنا المبالغة فيما تضمنه لفظ الموصوف (١١)

كما أن الوصف يفيد :

الترحم : نحو اللهم انا عبدك المسكين المنكسر قلبه ٠

والتوكيد : نحو ، أمس الدابر المنقضى أمده لايعود ٠

والابهام : نحو ، تصدقت بصدقه قليلة أو كثيرة نافع ثوابها أو شائع احتسابها ٠

---

(١٠) نيل الأوطار ٨/٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨

(١١) ٣/٤٨ شرح المفصل لابن يعيش

والتفصيل : نحو ، مررت برجلين عربى وعجمى كريم أبواهما لئيم حدهما » (١٢)

ثم نقل عن ابن الخباز أن النعت يجىء لأعلام المخاطب بأن المتكلم عالم بحال المنعوت كقولك : جاء قاضى بلدك الكريم الفقيه اذا كان المخاطب يعلم اتصاف القاضى بذلك ولم تقصد مجرد المدح ، بل قصدت اعلام مخاطبك بأنك عالم بحال الموصوف .

وعن بعضهم أنه قد يكون النعت لأفادة رفعة معنى المسند اليه نحو « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » أجرى هذا الوصف على النبيين لأفادة عظم قدر الاسلام (١٣) قال الزمخشرى : (الذين أسلموا) صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصلة والتوضيح ، وأريد باجرائها التعريض باليهود . وأنهم بعداء من ملة الأسلام التى هى دين الأنبياء كلهم فى القديم والحديث وأن اليهودية بمعزل منها ، وقوله (الذين أسلموا للذين هادوا) دفاد على ذلك (١٤)

وموقف الصفة مع أركان الجملة الأساسية كما ذكره الخطيب لايخرج عما سبق ، اذ قد بين الخطيب أن وصف المسند اليه يكون « تفسيرا له كاشفا عن معناه كقولك : الجسم الطويل العريض العميق محتاج الى فراغ يشغله » وتفسير الشىء كما قال ابن جنى « لاحق به ومتمم له ، وجار مجرى بعض أجزائه ، كالصلة من الموصول ، والصفة من الموصوف ، فمتى كانت الجملة تفسيرا لم يحسن الوقف على

---

(١٢) الأشمونى ٣/٥٩ مع حاشيته .
(١٣) حاشية الصبان ٣/٤٩
(١٤) الكشاف٢/٢٨ نشر دار المصحف ، وشروح التلخيص١/١٦٤

ماقبلها » لأنه محتاج الى البيان . وفى تفسير قوله تعالى « ان الانسان خلق هلوعا » قال أبو السعود وقد فسر الهلع أحسن تفسير قوله تعالى اذا مسه الشر » أى الفقر والمرض ونحوهما (جزوعا) أى مبالغا فى الجزع مكثرا منه ، واذا (مسه الخير) أى السعة والصحة (منوعا) مبالغا فى المنع والامساك ، والأوصاف الثلاثة : أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع جبل الأنسان عليها (١٥)

وفى قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) « قال البيهقى فى شرح الأسماء قرأت فى تفسير الجنيد أن قوله « لا تأخذه سنة ولا نوم » تفسير (للقيوم) والعرب تفعل التفسير فى مواضع التعظيم » (١٦)

والألفاظ التى تفسر هى الألفاظ المجملة عند الأصوليين ، ومنه اللفظ الغريب الذى فسره النص نفسه بمعنى خاص كما فى آية المعارج. ومنه الألفاظ التى نقلت من معانيها اللغوية الى معان اصطلاحية شرعية خاصة كألفاظ (الصلاة) والزكاة والصيام والحج والربا وغير هذا من كل لفظ أراد به الشارع معنى شرعيا خاصا لامعناه اللغوى ، فاذا ورد لفظ منها فى نص شرعى كان مجملا حتى يفسره الشارع نفسه فاذا صدر من الشارع بيان للمجمل وكان بيانا وافيا قاطعا صار به المجمل من المفسر .

كما نظر الأصوليون الى الصفة عندما تكون قيدا فى نص شرعى فان حكم النص فى المحل الذى تحقق فيه الوصف هو منطوق النص

---

(١٥) ارشود العقل السليم ٣٢/٧

(١٦) البرهان للزركشى ٣٦/٣

وأما حكم المحل الذى انتفى عنه القيد (الوصف) فهو مفهومه المخالف . فقوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى الى محـرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا »

منطوقه تحريم الدم المسفوح ، وأما تحليل الدم غير المسفوح فهو مفهوم مخالف لمنطوقه .

وقد اتفق الأصوليون على الاحتجـــاج بمفهـوم المخـالفة فى غير النصوص الشرعية فى مفهوم القيد (بالوصف أو العدد أو الغاية)

فالقيد هذا يكون حجة على ثبوت الحـكم الوارد حيث وجد ماقيد النص ، وعلى نفيه حيث ينتفى ، لأن عرف الناس واصطلاحهم فى الفهم والتعبير على هذا ، ولو لم يفهم النفى والاثبات كان التقييد فى عرفهـم عبثا الا اذا دلت قرينة على أن القيد ليس للتخصيص ، وذلك يكون بعد البحث وامعان النظر والتحقيق ، فاذا ورد القيد لحكمة أخرى ودلت على ذلك قرينة بأن ليس المراد به التخصيص ولا للاحتراز ، بل ورد جريا على الغالب مثل « وربائبكم اللاتى فى حجوركم » ، أو لمجرد تفخيم الأمر مثل قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لايحل لامـرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد فوق ثلاث الا على زوج) أو لأى حكمة أخرى يدل عليها النص بسياقه ، أو حكمة التشريع ـــلا يكـون النص حجة على مفهوم المخالفة فيه . (١٧)

أما النصوص الشرعية فهناك اختلاف فى الاحتجاج بمفهوم المخالفة ذلك ، والجمهور على أن النص الشرعى الدال على حكم فى واقعة اذا قيد

---

(١٧) هذا ملخص ماقاله أ. د. عبد الوهاب خلاف فى علم أصول الفقه من ١٥٣ ـ ١٦١

بوصف ، أو قرط بشرط ، أو حد بغاية ، أو عدد يكون حجة على ثبوت حكمه فى الواقعة التى وردت فيه بالوصف أو الشرط أو الغاية أو العدد الذى ذكر فيه ، ويسمى حكمه الأول منطوقه ، ويسمى حكمه الثانى مفهومه المخالف ، فالتحريم للدم المسفوح والتحليل للدم غير المسفوح كل منهما مدلول قوله تعالى « أو دما مسفوحا »

وقد بنى الأصوليون نظرتهم تلك على أمور هى :

١ - أن المتبادر الى الفهم من أساليب العرب وعرفهم فى استعمال عباراتهم أن تقييد الحكم بوصف أو شرط أو تحديده بغاية أو عدد يدل على اثبات الحكم حيث يوجد القيد ، وعلى نفيه حيث ينتفى فمن قال : (مطل الغنى ظلم) يفهم منه أن الفقير ليس كذلك .

٢ - لابد أن تكون القيود التى تورد فى النص لحكمة لأن الشارع لايقيد بذلك عبثا ، وأظهر مايتبادر الى الفهم أن تكون هذه الحكمة تخصيص الحكم بما وجد فيه القيد ، ونفيه عمن لم يوجد فيه القيد ولا فرق فى هذا بين النص الشرعى وغيره من عبارات الناس الا اذا دلت قرينة على أن الوصف أو الشرط أو غيرهما ليس للقيد بل لغرض آخر مثل التفخيم أو المدح أو الذم أو الجرى على الغالب فلا يحتج بمفهوم المخالفة له » (١٨)

افادة الصفة التأكيد :

قاله الخطيب والنحويون أيضا كما ذكرنا ذلك فى قولنا أمس الدابر لا يعود ، أو كان يوما عظيما(١٩) فان لفظ الأمس يدل على الدبور

---

(١٨) المرجع السابق ١٥٧/١٥٨ بتصرف

(١٩) أمس مبتدأ والدابر نعت مؤكد له مرفوع نظرا للمحل وجملة (كان) خبره .

والمضى ووصفه بالدبور اقتضاه المقام كأن يشار به الى تذكير تمنى بقائه والتأسف على مضيه ان كان مافيه محبوبا رأنه ليته ما دبر ، أو تذكير نعمة الشكر على مضيه وتذكيره مدح الصبر والتحريض عليه لغناء العوارض ان كان مافيه غير محبوب ، ذاك أن أمس لايكون الا دابرا . كما أن قولنا الميت العابر ، لا يكون فيه الميت الا عابرا ولقد بين (السعد) أن الوصف هنا مؤكد للمسند اليه و « ليس المراد بذلك التوكيد الاصطلاحى (لا اللفظى ولا المعنوى) بل أراد به المقرر وذلك فيما اذا كان المسند اليه متضمنا لمعنى ذلك الوصف فيكون ذلك الوصف مؤكدا ومقررا لذلك المسند اليه » والتأكيد يقصد هنا زائدا على الوصفيه بخلافه فى التأكيد بالنفس ونحوه .

ومثل لذلك أيضا بقوله تعالى « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » لأن الواحدة مفهومة من (نفخة) فهى اسم مرة محولة من النفخ لأن نفخة ليست من المصادر التى وضعت مقرونة بالتاء كرحمة .

ومع أن التوكيد مستفاد من المفعول المطلق ، الا أنه ليس مقصودا فاذا جاء بعد ذلك ذكر نوع أو عدد نص على التوكيد به وخصص مافى المفعول المطلق من ابهام وبينه ووضح ابهامه (٢٠)

ولذلك تقام صفة المفعول المطلق مقامه وتنوب منابه نحو « سرت أحسن السير ، وسرت أى سير أى سرت السير احسن السير وسرت

---

(٢٠) ويفيد التأكيد رفع توهم تعدد النفخ لأن هذه الصيغة قد تدل على الكثرة بدليل ، وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، ولون آخر من الصفات المؤكدة هو ماكان على شاكله قوله تعالى « ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » لأن القلب قد يطلق مجازا على العين كما أطلقت العين مجازا على القلب فى قوله « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى »

سيرا أى سير ، ومن نيابة الصفة كمـــا قال الدماميني ، ضربت ضرب الأمير وسرت سير ذى رشد على مامر بيانه وسرت طـويلا بنـــاء على أن التقدير سرت سيرا طـــويلا ... ومثله وأزلفـت الجنة للمتقين غير بعيد » أى ازلافا غير بعيد أو زمنا غير بعيد » (٢١)

ومما تفيده الصفة بيان المسند اليه وغيره :

ففى تفسير قوله تعالى : « لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد » قال الزمخشرى : « الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به متهما والذى يساق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد اليه ، والعناية به ،الا ترى أنك لو قلت : انما هو اله ولم تؤكد بواحد لم يحسن ، وخيل اليك أنك تثبت الألهية لا الوحدانية » .

وفى قوله تعـالى :

« وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »

قال السكاكى : شـــفع دابة بـ (فى الأرض) وطائـر بـ (يطير بجناحيه) لبيان أن القصد بهما الى الجنسين ـ ومراده أن لفظ دابة ، وطائر حامل لمعنى الجنس والوحدة فلبيان أن القصد منهما الى الجنس من حيث هو دون الوحدة والكثرة وصفا بصفة لازمة للجنس من حيث هو ، أى : بلا شرط شىء منهما ، والاستغراق المستفاد من كلمة (من) بالنظر الى الجنسين :ـ وعلى هذا فقريب منه ماذكر الزمخشرى ان معنى ذلك زيادة التعميم والأحاطة .

---

(٢١) ١١٣/٢ حاشية الصبان .

« والكلام مسوق لبيان كمال قدرته - عز وجل - وحسن تدبيره وحكمته ، وشمول علمه سبحانه وتعالى فهو كالدليل على أنه تعالى قادر على انزال الآيات وانما لاينزل محافظة على الحكم الباهرة وقيل انه دليل على أنه سبحانه وتعالى قادر على البعث والحشر » واختار بعض المتأخرين أن وجه الوصف تصوير تلك الهيئة الغريبة الدالة على كمال القوة والقدرة فى الطائر (٢٢)

ولما أورد : أنه لو قيل (فى السماء) لكان أخصر وأظهر مع مافيه من رعاية المناسبة بين القرينتين بذكر جهة العلو فى احداهما وجهة السفل فى الأخرى ، أجاب الشهاب : بأنه لو قيل : فى السماء يطير بجناحيه لم يشمل أكثر الطيور لعدم استقرارها فى السماء(٢٣) .

وأقول : انه كثيرا مايكتفى بما ذكر .. عما حذف فلما ذكر الأرض أفاد أن ماذكر من (طائر يطير بجناحيه) فى جو السماء اذ الطيران لايكون الا فى جوها أما قوله (يطير بجناحيه) ففيه بيان عظمة الامساك كما أن (فى الأرض) مفيد لعظمة الاحاطة والعلم لكل ما يدب عليها بل فى جوفها فبضدها تتميز الأشياء ، وفيه تأكيد على أن المراد بالطائر حقيقته وبجناحيه تأكيد حقيقة الطيران لأنه يطلق مجازا على شدة السرعة .

ولعل النص على الأرض ، لأن الحكمة فيها أغوص ، وبهم الصق فنبهوا على ما يقع تحت أرجلهم وهم عنه غافلون ، فكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون .

---

(٢٢) روح المعانى ١٤٢/٧ بتصرف .

ومن فوائد الوصف :

أن الصفة قد تذكر للتنبيه على علة الفعل المذكور قبلها ففى قوله تعالى :

« لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » قيل : لم حسن الجمع بين الناصية ، وناصية كاذبة خاطئة ، وهلا اقتصر على احداهما دون الأخرى ؟ فالجواب : أن الأولى ذكرت للتنصيص على ناصية المذكور الناهى ، وذكرت الثانية تنبيها بالصفة على علة السفع ليشمل بذلك ظاهرا كل ناصية هذه صفتها (٢٤) والخطأ صفة الكل وصف به الناصية .

وتذكر الصفة للتنبيه على أمر يتعلق بالموصوف :

وفى قوله تعالى « كأنهم خشب مسندة »

ذكر كلمة (مسندة) لأمرين :

أحدهما - للتنبيه على أنهم كالخشب القائمة ، فنبه على أن المراد أنها قائمه بقوله (مسندة) لأن الأخشاب لاتسند الا وهى قائمة لاستغنائها بالاستناد فى غير قيامها وقد تقدم أن المراد عدم فقههم مع عظم أجسامهم فناسب ذلك تشبيههم بالأخشاب القائمة وهى المسندة .

والثانية - التنبيه على أنه لافائدة فيهم كالخشب عند عدم استعماله ، فان الخشب القائم ليسقف عليه ، أو غير القائم ليسقف فيه فائدة ، وأما المسندة فلا فائدة فيها حال كونها مسندة (٢٥)

---

(٢٣) بتصرف من روح المعانى للألوسى ١٤٢/٧

(٢٤) أمالى ابن الحاجب ١٥٠/١ ، هذا مع ملاحظة أن الخطأ وصف للكل وصف به الجزء وهو الناصية

(٢٥) المرجع السابق ١٣٨/١

الصفة بين الاشتقاق والجمود :

قال ابن مالك :

وانعت بمشتق كصعب وزرب وشبهه كذا وذى والمنتسب

« والمراد بالمشتق مادل على الحدث وصاحبه - والحدث يقوم بغيره - وذلك كاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل وشبه المشتق هو المؤول به والمراد به ما أقيم مقام المشتق فى المعنى من الجوامد ، كذا وفروعه من أسماء الاشارة غير المكانية ، وذى بمعنى صاحب ، والموصولة وفروعهما ، والمنتسب . تقول : مررت بزيد هذا ، وذى المال وذو قام والقريشى فمعناها : الحاضر ، وصاحب المال والقائم والمنسوب الى قريش » (٢٦)

وذلك ينبئك أن المعانى هى التى يوصف بها وتسند الى غيرها فالمعنى ماقام بغيره بخلاف الذوات فانما يقوم غيرها بها ، والمراد اثبات المعنى للشىء كما قال الأمام عبد القاهر ، وذلك متصور فى الفعل أو مافى معناه .

واذا كان الأمر كذلك فانهم يشترطون مطابقة الصفة للموصوف فى الأعراب ، وفى التعريف أو التنكير ، وأما مطابقته للمنعوت فى التوحيد وغيره وهى : التثنية والجمع والتذكير وغيره وهو التأنيث فحكمه فيها حكم الفعل . فان رفع النعت ضميرا مستترا طابق المنعوت مطلقا ،

---

(٢٦) شرح الأشمونى على الألفية ٣/٦٣ فلا تكون الصفة الا مأخوذة من الفعل أو راجعا الى معنى الفعل كاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وقد وصفوا بأسماء غير مشتقة ترجع الى معنى المشتق قالوا رجل تميمى وبصرى ،وهو مؤول بمنسوب ومعزو ابن يعيش٣/٤٨

نحو : زيد رجل حسن وهند امرأة حسنة ، والزيدان رجلان حسنان ، والزيدون رجال حسنون ، فيطابق فى التذكير والتأنيث . والافراد والتثنية والجمع .

وان رفع النعت اسما ظاهرا كان بالنسبة للتذكير والتأنيث على حسب ذلك الظاهر،وأما فى التثنية والجمع فيكون مفردا . فيجرى مجرى الفعل اذا رفع ظاهرا ، تقول : مررت برجل حسنة أمه ، كما تقول : حسنت أمه ، وبامرأتين حسن أبواهما ، كما تقول : حسن أبواهما ، وهكذا .

قال ابن مالك :

وليعط فى التعريف والتنكير ما لما تلا كامرر بقوم كرما

والمطابقة هذه تعطى الوصف قوة ووثاقة ، لذا قال ابن جنى « ألا ترى أن من شرط الصفة أن تطابق موصوفها فى تذكيره وتأنيثه ، فوصف المذكر بالمؤنث ووصف المؤنث بالمذكر ليس متمكنا فى الوصف تمكن وصف المؤنث بالمؤنث والمذكر بالمذكر ، فقولك اذا : هذا رجل عليم أمكن فى الوصف من قولك هذا رجل علامة ، كما أن قولك مررت بامرأة كافرة أمكن فى الوصف من قولك مررت بامرأة كفور » (٢٧)

كما أننا نلاحظ سهولة النطق وانتظامه فلا نتوء فى التعبير ولاكد ولاثقل وعسر على اللسان كما أن ذلك لون من ألوان التماسك والتناغى فى التعبير ولعل ذلك أحسن تكييف بلاغى لشرط المطابقة هذا ، وانما وجب للنعت أن يكون تابعا للمنعوت من قبل ان النعت والمنعوت كالشىء

---

(٢٧) الخصائص ٣/١٩٠

الواحد فصار مايلحق بالاسم يلحق النعت .. فالنعت يخرج المنعوت من نوع الى نوع أخص منه فالنعت والمنعوت بمنزلة انسان والمنعوت وحده بمنزلة حيوان ، ألا ترى أنك اذا قلت مررت برجل فهو من الرجال الذين كل واحد منهم رجل ، واذا قلت مررت برجل ظريف فهو من الرجال الظرفاء الذين كل واحد منهم رجل ظريف .

النعت بالأعلام :

قال ابن جنى : باب فى الاستخلاص من الأعلام معانى الأوصاف : من ذلك ما أنشدناه أبو على رحمه الله من قول الشاعر :

أنا أبو المنهال بعض الأحيان ليس على حسبى بضؤلان

أنشدنيه رحمه الله ، ونحن فى دار الملك ، وسألنى عما يتعلق به الظرف الذى هو بعض الأحيان فخضنا فيه الى أن يرد فى البلد من جهته أنه يحتمل أمرين :

أحدهما - أن يكون قد عرف من أبى المنهال هذا الغناء والنجدة فاذا ذكر فكأنه قد ذكرا فيصير معناه الى أنه كأنه قال : أنا المغنى فى بعض الأحيان ، أو أنا النجد فى بعض تلك الأوقات .

---

(٢٨) الأسماء التى هى أعلام نحو زيد وعمرو لاينعت بها لأنها ليست بتحلية ولانسب ولايكون النعت الا بواحد منهما أو بما كان فى معناه قاله المبرد فى المقتضب ٤/٢٨٤ « واعلم أن العلم الخاص من الأسماء لايكون صفة لأنه ليس بحلية ولا قرابة ولامبهم الكتاب ١/٢٢٣

(٢٩) الأسماء التى هى أعلام كزيد وعمرو لاينعت بها لأنها ليست بتحلية ولا نسب ولايكون النعت الا بواحد منهما أو بما كان فى معناه « فهو ليس بحلية ولاقرابة ولامبهم » المقتضب ٤/٤٨٤ الكتاب ١/٢٢٣

ومنه قولهم فى الخبر انما سميت هانئا لتهنأ وعليه جاء (نابغة) لأنه ينبغ فسمى بذلك فهذا - لعمرى - صفة غلبت فبقى عليها بعد التسمية بها بعض ما كانت تفيده من معنى الفعل من قبل ، (انتزعت من العلم معنى الوصفية)

ومنه قول الطائى الكبير :

فلا تحسبا هندا لها العذر وحدها سجية نفس كل غانية هند

فقوله : كل غانية هند متناه فى معناه ، وآخذ لأقصى مداه ألا ترى أنه كأنه قال : كل غانية غادرة أو خائنة أو نحو ذلك .

ومنه قول الآخر :

ان الذئاب قد اخضرت براثنها والناس كلهم بكر اذا شبعوا

أى اذا شبوا تعادوا وتغادروا ، لأن بكرا هكذا فعلها . ونحو من هذا ، وان لم يكن الاسم المقول عليه علما قول الآخر :

ما أمك اجتاحت المنايا كل فؤاد عليك أم

كأنه قال كل فؤاد عليك حزين .

ومثله فى النكرات أيضا قولهم : مررت برجل صوف تكته ، أى خشنة وخز قميصه ، أى ناعم . ومررت بقاع عرفج كله أى جاف وخشن : وان جعلت كله توكيدا لما فى عرفج من الضمير فالحال واحدة ، لأنه لم يتضمن الضمير الا لما فيه من معنى الصفة :

ومن العلم أيضاقولهم :

أنا أبو بردة اذ جد الوهل

أى أنا المعنى والمجدى عند اشتداد الأمر .

وقريب منه قوله :

أنا أبـوها حين تستبغى أبا

أى أنا صاحبها وكافلها وقت حاجتها الى ذلك .

ومثله وأحسن صنعة منه قوله :

لا ذعرت السوام فى فلك الصبح مغـيرا ولا دعيـت يزيدا

أى لا دعيت الفاضل المعنى ، هذا يزيد ، وليس يتمدح بأن اسمه يزيد ، لأن يزيد ليس موضوعا للنقل عن الفعلية الا للعلمية فانما تمدح هنا بما عرف من فضله وغنائه وهو كثير (٣٠)

والبلاغيون عند استعارتهم الأعلام ، يشترطون أن تتضمن الأعلام « نوع وصفية لسـبب خارج كتضمن حاتم الجـواد ، ومدر البخيـل وماجرى مجراهما » (٣١) فاذا قلت : عند رؤيتك جوادا مثـلا : رايت اليوم حاتما فكأنك بذلك جعلت حاتما موضوعا للجواد وجعلت ما رأيته فردا منه ، وعلى هذا فالاستعارة أصليه لأنها لم تجر في مشتق بالفعل ، وقيل : انها تبعية فكأن الذى معنا لما تضمن الصفة ، فالمعـانى التى اختير لها من الألفاظ مايكون علما عليها واسعة الانتشار سعة الأحوال ، وعادات الناس ، واختلاف البيئات لقد شـبهوا الجواد الكثير العطاء بالبحر وانحيا ، والشـجاع بالأسد ، والجميل البـاهر الحسن الرواء بالشمس ، والمهيب الماضى فى الأمور بالسيف ، والعالى الهمة بالنجم ، والحليم الركين بالجبـل ، والحيى بالبكر ، والغزير الصـعب المـرام بالمتوقل فى الجبال ، والسامى فى العلو ، وتشبيه الغـائب بالحلـم

---

(٣٠) المرجع السابق ٣/٢٧١ ، ٢٧٣

(٣١) بغية الأيضاح ٣/١١٩

وبأمس المذاهب وتشبيه أضداد هذه المعانى بأشكالها على هذا القياس كاللئيم بالكلب ، والجبان بالصفرد والطائش بالفراش ، والذليل بالنقد ، وبالوتد والقاسى بالحديد والصخر ٠

وقد فاز أقوام بخلال شهروا بها من الخير والشر وصاروا أعلاما فيها فربما شبه بهم فيكونون فى المعانى التى احتووا عليها وذكروا ٠ بشهرتها نجوما يقتدى بهم وأعلاما يشار اليهم كالسموأل فى الوفاء وحاتم فى السخاء والأحنف فى الحكم وسحبان فى البلاغة ولقمان فى الحكمة فهم فى التشبيه يجرون مجرى ماقدمنا ذكره من البحر والحيه والشمس والقمر والسيف ، ويكون التشبيه بهم مدحا كالتشبيه بها وكذلك أضدادها ٠

وقوم يذمون فيما شهر به يشبه بهم فى حال الذم كما يشبه بهؤلاء فى حال المدح ، كباقل فى العى ، وهبنقة فى الحمق ، والكسعى فى الندامة ، والمتروف ضرطا فى الجبن ، فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعانى فى التشبيهات لتكثر شواهدها ، ويتأكد حسنها ويتوقى الاقتصار على ذكر المعانى التى يغير عليها دون الأبداع فيها والتلطف لها لئلا يكون كالشىء المعاد المملول » (٣٢)

الوصف بالجامد :

مع ارادة حقيقة الجامد لايصح أن يوصف به ، لأن الوصف حلية وذلك لاحلية فيه يوصف بها ، فاذا أريد المعنى من ذلك الاسم الجامد جاز الوصف به على قلة ٠

---

(٣٢) عيار الشعر لابن طباطبا / ط المعارف / ٦١

قال أبو حيان « والوصف بالأسماء لايطـرد وان كان قد جاء منه شيء نحو قولهم : مررت بقاع عرفج كله

وفى المقتضب ٣/٢٥٨ - ٢٦٠

باب مايقع فى التعبير من أسـماء الجواهر التى لاتكون نعوتا ، تقول : مررت، ببرقفيز بدرهم - لأنك لو قلت : ببرقفير كنت ناعتـا بالجوهر وهذا لا يكون ، لأن النعوت تحلية ، الجواهر هى المنعوتات .

وتقـول العجب من بر مررنا به قفيزا بدرهم ، فان قلت كيـف أجعله حالا للمعرفة ولا أجعله صفة للنكرة ؟ فان سيبويه اعتل فى ذلك بأن النعت تحلية وأن الحالة مفعول فيها وهـذا على مذهبه صـحيح بين الصحة . وشرحه - وان لم يذكره سـيبويه - انمـا هو موضوع فى موضع قولك : مسعرا فالتقـدير : العجب من بر مررنا به مسـعرا على هذه الحال .

وقد أجاز قوم كثير فيقال هذا راقود خل وهذا خاتم حديد ... وعلى هذا مررت برجل أسد أبوه لأنه وضعه فى موضع شديد أبوه ألا ترى أن سيبويه لم يجز مررت بدابة أسد أبوها اذا أراد السبع بعينه فاذا أردت الشدة جاز على ما وصفت له ... فحق الجـواهر أن تكون منعوته ليعرف بعضها من بعض وحق الأسماء المأخوذه من الأفعـال أن تكون نعوتا لمـا وصفت لك (٣٣)

وفى الكشاف فى تفسير قوله تعـالى « وبدلناهم بجنيتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل »

وجه من نون أن أصله ذواتى أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم

---

(٣٣) دراسات لأسلوب القرآن ق ٣/ ج ٣/٥٠١ - ٥٠٢

المضاف اليه مقامه ، أو وصف الأكل بالخمط كأنه قيل ذواتي أكل بشع » (٣٤)

الوصف بالمصدر :

يقع الوصف بالمصدر كثيرا لقصد المبالغة فى الصفة ومن هنا اشترط فى الوصف بالمصدر الا يثنى ولا يجمع

قال ابن مالك :

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الافراد والتذكيرا

والنعت به على خلاف الأصل لأنه يدل على المعنى لا على صاحبه ٠

تقول : مررت برجل عدل ، وبرجلين عدل ، وبامرأة عدل وبامرأتين عدل وبنساء عدل ، جعلوا الموصوف ذلك المعنى لكثرة حصوله منه وهذا يفيد المبالغة ولما كان ذلك على غير الأصل أولوا هذا التعبير اما على وضع المصدر موضع اسم الفاعل ، او على حذف مضاف والأصل مررت برجل ذى عدل ثم حذف ذى وأقيم المصدر مقامه ، واما على المبالغة يجعل العين نفس المعنى مجازا أو ادعاء - وهذا مانرجحه ٠ لأن المبالغة فيه واضحة فكان هذا التعبير علم عليها -

---

(٣٤) وقولهم مررت برجل أسد ، ضعيف عند سيبويه أن يكون نعتا لأن الأسد اسم جنس جوهر ولايوصف بالجواهر ، لو قلت : هذا خاتم حديد أو فضة لم يحسن انما طريق الوصف التحلية بالفعل نحو آكل وشارب ونحوهما ومجازه على - حذف مضاف تقديره مثل أسد ومثل بمعنى مماثل فهو مأخوذ من الفعل وأنه واقع موقع جرىء و شديد - (٣/٤٩ - ابن يعيش)

ومنه قوله تعالى « قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا » أى غائرا ، ونحو قول الخنساء :

ترتع مارتعت حتى اذا ادكرت فانما هى اقبال وادبار

وما كان مثله من قبل أن من وصف بالمصدر فقال هذا رجل زور وصوم ونحو ذلك ، فانما ساغ له لأنه أراد المبالغة وأن يجعله هو نفس الحدث لكثرة ذلك منه ولذلك لم يجيزوا زيدا إقبالة وادبارة قياسا على زيد اقبال وادبار ، لأن المرة الواحدة غاية القلة فلا يجوز وضعها فى موطن هو غاية الكثرة » (٣٥)

« والمصدر على الحقيقة لايجمع لأن المصادر كلها جنس واحد من حيث كانت عبارة عن حركة الفاعل والحركة تماثل الحركة ولاتخالفها بذاتها ولولا هاء التأنيث فى الحركة ماساغ جمعها » (٣٦)

ومع أن الوصف بالمصدر يحتمل التخريجات الثلاث الا أن الأوفق بروح اللغة وبطبيعة المبالغة هو التخريج على المجاز العقلى

فليس بالوجه أن يعد هذا على الأطلاق معد ماحذف منه المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مثل قوله عز وجل « واسأل القرية » .. وان كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون انه فى تقدير « فانما هى ذات اقبال وادبار » .

ذلك أن ماحذف يكون فى حكم المنطوق به بخلاف الأمر ههنا .

« فالوجه أن يكون تقدير المضاف فى هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جىء به على ظاهره ولم يقصد الى الذى ذكرنا من المبالغة

---

(٣٥) الخصائص لابن جنى ٣/١٨٩ بتصرف .

(٣٦) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/٨٤ ، ٨٥

والاتساع وأن تجعل الناقة المذكورة (فى بيت الخنســـاء) كأنهـا قد صارت بحملتها اقبالا وادبارا حتى كأنها قد تجسمت منهمـا لكان حقه حينئذ ان يجاء فيه بلفظ الذات فيقال انما هى ذات اقبـال وادبار فأما أن يكون الشعر الآن موضوعا على ارادة ذلك وعلى تنزيله منزلة المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال فى :

حسبت بغـام راحلتى عنـاقا

حين كان المعنى والقصد أن يقول : حسبت بغـام راحلتى بغـام عناق فمما لامساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة نسبته للمعانى » (٣٧) هـ ملخصا ٠

ووصـف الفاعل والمفعول بالمصـدر كثير فى القرآن الكريم قال العز بن عبد السلام ، ووصف الفاعل والمفعول بالمصـدر فقد قيل : انه من مجاز الحذف ، وقيل انه من مجاز المبالغة فى الصفة ويجوز أن يكون بعض ذلك من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به كالتعبير بالأمـر عن المأمور به ، والتعبير بالهزء عن المهزوء به لأنهمـا قولان عبـر بهما عن متعلقهما ٠

وهناك لون من المصادر هو المصادر المضافة اذا وصف بها كقولهم مررت برجل حسبك من رجل ، وبرجل شرعك من رجل فحسبك مصدر فى موضـــع محســب ، وكذلك شرعك من شرعت فى الأمر اذا خضـت فيـه وتطلبـه فهـذه المصـادر جارية على ما قبلهـا جـرى الصـفة . وهى موحدة على كل حال لأن المصدر موحد لايثنى ولايجمـع لأنه جنس يدل بلفظه على القليل والكثير فاستغنى عن تثنيته وجمعه الا أن يكثـر

(٣٧) دلائل الاعجاز ٣٠٢ ، ٣٠٣

الوصف بالمصدر فيكون من حيز الصفات لغلبة الوصف به فيجوز حينئذ تثنيته وجمعه نحو قوله :

« شهودى على ليلى عدول مقانع »

فلما غلب الوصف بالمصدر (عدل) وكثر صار كأنه صفة فجاز أن يثنى ويجمع ، وهذا المصدر يوصف به النكرة لأن اضافته بمعنى الحال أو الاستقبال فهى فى معنى اسماء الفاعلين بمعنى الحال ،واضافة اسماء الفاعل اذا كانت للحال أو الاستقبال لاتفيد التعريف ألا ترى كيف يوصف بها النكرة وذلك وارد فى القرآن ، قال تعالى « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا » ولذا قال امرؤ القيس

وقد اغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

الا ترى كيف وصف (منجردا) بقيد الأوابد مع أنه معرفة اذ المراد مقيد الأوابد (الوحشية) أى يدركها لشدة جريه فيمنعها من الانبعاث فكأنه قيد لها .

الصفة الصريحة وغير الصريحة :

أعنى بالصفة الصريحة الاسم المفرد الدال على معنى الوصفية فيه مباشرة ، وذلك بخلاف الجملة وشبهها .

ولاشك أن مذاق الوصف الصريح غير مذاق الوصف اذا كان جملة أو شبهها فأنت تقول رأيت شخصا جميلا ، وشخصا كالبدر ، أو كأنه القمر،وتقول هذا رجل يحبه الناس فتجد انتعاشا للصفة اكثرمن محبوب.

وقد كثر مجيء النعت جملة ، وللجملة دلالات عديدة ظاهرة وغير ظاهرة ، وشرط مجيء الجملة نعتا أن تكون خبرية مشتملة على ضمير يعود

على الموصوف لأن الصفة كالخبر فكما لابد من عائد الى المبتدأ اذا وقعت خبرا كذلك لابد منه فى الجملة اذا وقعت صفة ٠

ولما كان الغرض من الصفة الأيضـــاح والبيـــان بذكر حال ثابته للموصوف يعرفها المخاطب له ليست لمشاركة فى اسمه ، والأمر والنهى والاستفهام ليست بأحـوال ثابته للمذكور يختص بهـا انمـــا هو طلب واستعلام لا اختصاص له بشخص دون شخص لا يوصف بها كما أنهـا لا تقع أخبارا ٠

وما ورد من ذلك فعلى أنه مؤول

ومنه قول أبى الدرداء : « وجدت الناس أخبر تقله » أى وجدتهم مقولا فيهم هذا القول ٠

والجملة الموصوف به تكون فى قوة المفرد ولها موضع ذلك المفرد من الأعراب ٠ واعلم أنه لا ينعت بالجملة المعرفة، لأن الجملة نكرة فلا تقع صـفة للمعرفة لأنها حـديث ألا ترى أنهـا تقع خبرا نحو زيد أبوه قائم ومحمد قام أبوه وانما تحدث بما لايعرف فتفيد السامع فلم يكن عند فان أراد وصف المعرفة بجملة أتيت بالذى رجعلت الجملة فى صـــلته فتقول مررت بزيد الذى أبوه منطلق فتوصلت بالذى الى وصف المعرفة بالجملة كمـا توصـلت بأى الى نداء ما فيـه الألف واللام نحو يأيهـا الرجل (٣٨)

وينعت أيضا بشبه الجملة الظرف والجار والمجرور غير أن ظـرف الزمان لايكون وصفا للجثة ولا خبرا عنها - فالظرف اذا وقع صفة كان

---

(٣٨) ابن يعيش ٣/٥٤

حكمه كحكمه اذا وقع خبرا ان كان الموصوف شخصا لم تصفه الا بالمكان نحو هذا رجل عندك ولا تصفه بالزمان ، لاتقول هذا رجل اليوم ولا غدا ، لأن الغرض من الوصف تحلية الموصوف بحال تختص به دون مشاركة فى اسمه ليفصل منه ، والزمان لايختص بشخص دون شخص فلا يحصل به فصل » (٣٩)

وتوجد ألفاظ ينعت بها وقد جمعها الاستاذ عضيمة فى كتابه الموسوعة فراجعها وهى ذا ، وذو ، وذات ، وذوا ، ومثل ، ولفظ ابن وابنة والملاحظ أن هذه الألفاظ لكثرة استعمالها صارت كأنها أعلام على ماتدل عليه وهى أبلغ فى الدلالة على معانيها اذا استعملت فذو أبلغ من صاحب ، و (مثل) نص فى المشابهة ولفظ ابن وابنة يخلفان وراءهما ظلا من المودة والتعاطف كما أنهما نص فى قوة الصلة .

النعت بين العموم والخصوص :

الوصف بيان وايضاح ، وكلما كان النعت أعم من المنعوت كان أكثر بيانا وايضاحا له « وأصل ماذكر فى الصفات أن الأخص يوصف بالأعم وفى المقرب لابن عصفور ، « ولا يكون النعت الا مساويا للمنعوت فى التعريف أو أقل منه تعريفا » (٤٠)

ومنه يفهم أن البعض يوصف ولا يوصف به ، والبعض لايوصف به والبعض لايوصف ولا يوصف به .

فالمضمر لايقع موصوفا ولا صفة ، والعلم مثله ، ذلك لوضوح معناها ومعرفة المخاطب بالمقصود بها اذ كنت لاتضمر الاسم الا وقد

---

(٣٩) ابن يعيش ٣/٥٣

(٤٠) ١/٢٢١

عرف المخاطب الى من يعود ومن تعنى فاستغنى لذلك عن الوصف ، ولا يوصف بها لأن الصفة تحلية بحال من أحوال الموصوف والمضمرات لااشتقاق لها فلا تكون تحلية . وكذلك العلم الخالص لا اشتقاق فيه فلا يوصف به وذلك أنه لم يسم به لمعنى استحق به ذلك الاسم دون غيره ويوصف لأزالة الاشتراك فى الوصف ، ويوصف العلم بالمحلى بأل وباسم الاشارة وبالمضاف ، وأسماء الأشارة توصف ويوصف بها

« زمن حق الموصوف أن يكون أخص من الصفة أو مساويا لها ولذا امتنع وصف المعرف باللام بالمبهم ، وبالمضاف الى ماليس معرفا باللام لكونهما أخص منه »

قال ابن يعيش (٤١) وذلك لوجهين أحدهما أن الصفة تتمه للموصوف ، وزيادة فى بيانه والزيادة تكون دون المزيد عليه وأما أن تفوقه فلا ، فاذا وجه الكلام أن تبدأ بالأعرف فان كفى والا أتبعته مايزيد بيانا .

وأما الوجه الثانى - فان الصفة خبر فى الحقيقة ، ألا ترى أنه يحسن ان يقال لمن قال : جاءنى زيد الفاضل كذبت أو صدقت كما يحسن ذلك فى الخبر . والخبر يكون أعم من المخبر عنه أو مساويا له . الا أن الفرق بينهما أنك فى الصفة تذكر حالا من أحوال الموصوف لمن يعرفها تعريفا له عند توهم الجهالة بالموصوف وعدم الاكتفاء بمعرفته ، وفى الخبر انما تذكر لمن يجهلها فتكون هى محل الفائدة ، هـ مختصرا-

---

(٤١) شرح المفصل ٣/٥٨

وصف النكرة :

قلنا ان النكرة أحوج الى الوصف من المعرفة ، ووصف النكرة يكون مفردا ويكون جملة وتوصف بهما معا ، لأن النكرة فى التعبير باعث على بسط الكلام وتمديده ، ووصفها بأكثر من صفة ، وهذا الوصف له مدخل كبير فى تحديد نوعها ، أو بيان جنسها ، وبدون ذلك الوصف لا تتخصص النكرة فيبعد ان تقع مبتدأ مثلا .

فمما وصفت فيه النكرة بالوصف الصريح ، قوله تعالى « ولا تطع كل حلاف مهين همماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم » والملاحظ على هذه الأوصاف أنها من أقوى مايعاب به ويذم ، وهى معدودة للزجر ، قال أبو السعود (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف فى الحق والباطل ، وتقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخل فى الزجر ، وهى أوصاف لازمة كأنها صارت طبيعة فيه ، فهى لا تنفك عنه .

وصف النكرة بالجملة :

قال الخطيب : « واعلم أن الجملة قد تقع صفة للنكرة ، وشرطها أن تكون خبرية ، لأنها فى المعنى حكم على صاحبها كالخبر ، فلم يستقم أن تكون انشائية مثله » وقال السكاكى : « لأنه يجب أن يكون المتكلم يعلم تحقق الوصف للموصوف ، لأن الوصف انما يؤتى به ليميز به الموصوف مما عداه ، وتمييز المتكلم شيئا من شىء بما لايعرفه له محال ، فما لايكون عنده محققا للموصوف يمنع أن يجعله وصفا له بحكم عكس النقيض ، ومضمون الجملة الطلبية كذلك ، لأن الطلب يقتضى مطلوبا غير متحقق لامتناع طلب الحاصل فلا يقع شيئا منها صفة لشىء » وقد جوز أن تقع الانشائية صفة قال السكاكى « وفى مثل زيدا اضربه أو

لا تضربه أنه محمول على (يقـــال) أى : يقـــال فى حقه : اضربه أى لا تضربه ، وعليه حملت قراءة ابن عباس رضى الله عنهما « ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين من فرعون » على لفظ (من) الاستفهامى ورفع الاسم بعدها ، والمعنى : من فرعون ؟ هل تعرفون من هو فى عتوه وشدة شكيمته فى تفرعنه فما ظنكم بعذاب يكـون من جهته ، وبهـذا فسر قول الحجاج يصف لبنا مخلوطا بالماء :

حتى اذا جن الظـــلام واختلط جاؤا بمذق هـل رأيت الذئب قط

أى بمذق مقول فيه عند رؤيتك ذلك . فهو يحمل رائيه على هذا القول .والجملة الانشائية ذات دلالة تختلف عن الخبرية ، والخبـرية أيضا اذا كانت فعلية تختلف عنها اذا كانت اسمية ، فاذا وصف النكرة بالجملة روعيت دلالة كل جملة من حيـث الوعد والوعيـد ، والتجـدد والثبات والاسمية والفعلية فعطاء الجمل ثر لايحد .

ففى كل حال تعلم أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشىء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء ، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شىء(٤٢) .

ولاختلاف دلالة الاسمية عن الفعلية يقول الامام عبد القاهر :

ولا يغرنك أنا اذا تكلمنا فى مسائل المبتدأ والخبر قدرنا الفعـل فى هذا النحو تقدير الاسم كما نقول فى زيد يقوم انه فى موضـع زيد قائم فان ذلك لايقتضى أن يستوى المعنى فيهما استواء لايكون من بعده افتراق فانهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعـلا والآخـر اسما ، بل كان ينبغى أن يكونا جمعيا فعلين أو يكونا اسمين :

---

(٤٢) دلائل الاعجاز /١٧٤

ومن البين فى هذا قول الأعشى :

لعمرى لقد لاحت عيـون كثيرة الى ضوء نارٍ فى يفـاع تحرق

معلوم أنه لو قيل الى ضوء نار متحرقة لنباعته الطبـع ، وأنكرته النفس ثم لايكون ذاك النبو ، وذاك الانكار من أجل القافيه وأنها تفسد به بل من جهه أنه لايشبه الغرض ولا يليق بالحال ، وكذلك قوله

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الى عريفهـم يتوسـم

وذاك أن المعنى ... فى بيت الأعشى على أن هنـاك موقدا يتجدد منه الالهاب والاشعال حالا فحالا ، واذا قيل متحرقة كان المعنى أن هناك نارا قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة ، وجرى مجرى أن يقال الى ضوء نار عظيمة فى أنه لايفيد فعـلا يفعل وكذلك الحال فى قوله « بعثـوا الى عريفهم يتوسم » وذلك لأن المعنى على توسم وتأمل ونظـر يتجـدد من العريف هناك حالا فحالا وتصفح منه الوجوه واحدا بعد واحد ولو قيل بعثوا الى عريفهم متوسما لم يفد حق الافادة .

ومن لطيف هذا الباب قوله

وانى لمشتاق الى ظل صاحب يروق ونصفو ان كدرت عليه (٤٣)

ساق ذلك الامام عبد القاهر دليلا على أن للخبر المعرف باللام مذاقا خاصا ، وله مسـلك دقيق ولمحـة كالخلس يكون المتـأمل عنه كما يقال يعرف وينكر وذلك كقولك هو البطل المحامى وهو المتقى المرتجى فانت تريد أن تقول لصاحبك هل سمعت بالبطل المحامى ؟

---

(٤٣) قد قدر مالم يعلمه موجـودا ولذلك قال المـأمون خذ منى الخلافة وأعطنى هذا الصاحب فهذا التعريف الذى تـراه فى الصـاحب لايعرض فيه شك أنه موهوم ، الدلائل / ١٨٥

وهل حصلت معنى هذه الصفة وكيف ينبغى أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه ؟ فان كنت قتلته علما وتصورته حق تصوره فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك ، وعندك بغيتك وطريقه طريق قولك : هل سمعت بالأسد وهل تعرف ماهو فان كنت تعرفه فزيد هو هو بعينه ، ويزداد هذا المعنى ظهورا بأن تكون الصفة التى تريد الأخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف كقول ابن الرومى :

هو الرجل المشروك فى جل ماله ولكنه بالمجد والحمد مفرد

تقديره : كأنه يقول للسامع فكر فى رجل لايتميز عفاته وجيرانه ومعارفه عنه فى ماله وأخذ ماشاؤا منه فاذا حصلت صورته فى نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل ..

وان أردت أن تسمع فى هذا المعنى ماتسكن النفس اليه سكون الصادى الى برد الماء فاسمع قوله :

أنا الرجل المدعو عاشق فقره اذا لم تكارمنى صروف زمانى

فهذا كله على معنى الوهم والتقدير ، وأن يصور فى خاطره شيئا لم يره ولم يعلمه ثم يجريه مجرى ماعهد وعلم .

ولكون هذا الجنس معهودا من طريق الوهم والتخيل جرى على مايوصف بالاستحالة ، كقولك للرجل وقد تمنى : هذا هو الذى لايكون وهذا مالايدخل فى الوجود .

ان ورود الصفات فى قول زهير :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم

هو الذى قوى تلك الاستعارة ورشحها وأعان على ابراز قوة الممدوح حيث اختار الشاعر أن يأتى بالصفات التى تناسب جانب

المستعار له وهى (شاكى السلاح) - ومقذف على قـول ، وراعى جانب المستعار منه فقال له لبد ، ومقذف على القول الآخر ٠

وفى هذا تقوية لأمر الموصوف وهو فى الوقت نفسه أعظـم مافى الاستعارة من خلابة ، وجمال ٠

فاذا خلت الاستعارة عما يلائم المستعار له ، أو المستعار ضعفت ٠

ومكان الصفة من النكرة يلطف ويدق ، اقرأ قوله تعالى :

« قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا فجملة « تكون لنا عيدا » فى قوة (مائدة سـارة) فهى صـفة ولكن القرآن أتى بكلمة (عيدا) لأنها عنوان على السرور فخلع على المحل والزمن مايكون فيه وسمى باسمه مبالغة فى الصفة التى عمت وشملت لم تكن لتنهض كلمة سارة لو كان التعبير ربنـا أنزل علينـا مائدة من السماء سارة وفضل التعبير هنا عائد الى أمرين وصف النكرة بالجملة « تكون لنا عيدا » اختيار لفظ العيد ليعبر عن عموم السرور وشموله ٠

وفى كثير من الأحيان تحجم الصفة النكرة فتضرب - عليها سورا حتى تصبح غريبة فى جنسـها لانظير لها ، اقـرأ معى قول الشـاعر يصف ممدوحه

أسد دم الأسد الهزبر خضابه موت فريص الموت منه يـرعب

المعنى هو كأسد بهذه الصفة (دم الأسد الهزبر خضابه)

وكذلك وصف الموت بأن فريص المـوت يرعد منـه ، ولاشك أن هذه صورة نادرة فلم يعهد أسد بهذه الصورة ولا موت هكذا ٠

قال الخطيب ، فظهر أنه أنما أراد أن يثبت من الممدوح بدرا له هذه الصفة العجيبة التى لم تعرف للبدر فهو مبنى على تخيل أنه زاد فى جنس البدر واحدا له تلك الصفة فالكلام موضوع لا لأثبات الشبه بينهما

(أى بين المشبه والمشبه به) ولكن لاثبات تلك الصفة فهو كقولك زيد رجل كيت وكيت لم تقصد اثبات كونه رجلا ولكن اثبات كونه متصفا بما ذكرت فاذا لم يكن اسم المشبه به فى البيت (الذى) سبق وصفه هذا البيت ٠

وبدر أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلى منه أسود مظلم

مجتلبا لاثبات الشبه تبين أنه خارج عن الأصل الذى تقدم (٤٤) من كون الاسم مجتلبا لاثبات الشمس فالكلام فيه مبنى على أن كون الممدوح بدرا قد استقر وثبت وانما العمل فى اثبات هذه الصفة الغريبة

اذن كلما سيقت الصفة فى قالب تشبيهى كلما كانت أكمل وأوضح ولأن كل تشبيه كناية عن أصل معناه تكون آكد وكل ذلك يجعل للوصف قوة التأثير (مدحا أو هجاء) لذا كثر التشبيه فى كلام العرب وهو غرض من أغراض الشعر لأن روحه الوصف والوصف عمدة التأثير والأداة المصورة لدى كل شاعر لقد « تضمنت أشعار العرب من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها ، وحسها الى مافى طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها فى رخائها وشدتها ورضاها وغضبها وفرحها وغمها وأمنها وخوفها وصحتها وسقمها والحالات المتصرفة فى خلقها وخلقها »

ونظرا لأن قوة التشبيه مبنيه على أمر الاشتراك بين طرفيه فى اكثر من صفة اذ أنه من المعلوم أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات اكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما الى حال من الاتحاد نظر لذلك فقالبه من أقوى مايوصف به ٠

---

(٤٤) يقصد سهولة تقدير الأداه وعدم ذلك ليفرق بين التشبيه والاستعارة ٠

وانظر فى ذلك أقوال البلاغيين فى هذه الشواهد فى باب التشبيه ونحن هنا نسوقها على الوصف شاهدا ، فهذا يزيد بن عوف العليمى يصف صوت جرع اللبن

فغب دخالا جرعة متواتر كوقع السحاب بالطراق الممدد

فصيرنا كأننا نسمع ذلك الصوت ، وجاء بالجملة الاسمية (جرعه متواتر) لتقرر صفة هذا الغب ، ولتمام ابراز تلك الصفة جىء بالتشبيه لتحديد مقدار هذا الصوت فكلمة (الطراف الممدد) أعطت بعدا آخر لهذا الصوت وأسمعتنا نغمة ورنينا آخر ماكنا ندريه بدونها .

وانظر دقة بيان مقدار الصفة فى قول عدى بن الرقاع يصف قرن ظبى .

تزجى أغن كأن ايرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فأراك أقرب صفة من أبعد موصوف (٤٥)

ان الوصف بالجمل فيه فضل بيان حسن وتصوير بديع اذ يتمكن الشاعر والناثر من التصوير والتطويل ، وذلك سر الأكثار من الأتيان بالمشبه به نكرة موصوفة بجمل عديدة أعون على اظهارها فيتضح المشبه بالقياس على المشبه به .

وفى سرد تلك الصفات مايترك للأديب فرصة متسعة لبث خواطره واطراد قوافيه ، وجلاء المعانى .

اقرأ قوله سبحانه « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة »

فلما كان القتال كرها أثار حميتهم نحوه بتعرية هؤلاء القوم

---

(٤٥) الكامل للمبرد ٢/٩٤ ط الاستقامة ١٩٥١

وفضح أسرارهم « لقد وبخهم القرآن بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها ، ويقرر أن من كان فى مثل صفتهم من نكث العهد واخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب حقيقى بأن لا تترك مقاومته وأن يوبخ من فرط فيها »(٤٦) .

فالغرض فى الآية ليس الوصف فقط بل الحض والاثارة وكثيرا ماتؤدى جملة الصفة بوصفها جملة خبرية معانى عديدة فوق دورها الأساسى اقرأ قوله تعالى « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون »

يقول الزمخشرى « السؤال على سبيل الانكار والتعنت فطابق الجواب مجيئة على طريق التهديد » .

وفى صفة قوم لوط يقول « وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون » .

« سخرية بهم ، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة كما يقول الشطار من الفسقه لبعض الصلحاء اذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد » (٤٧)

وفى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « الناس كأبل مائة لاتجد فيها راحلة » أفادت جملة الصفة ندرة الصالحين وقلتهم والتأسف على ذلك والندم ومن الكلام مايضفى فيه وصف النكرة عليها تعظيما زائدا .

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم « مامن الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون اكثرهم تابعا »

---

(٤٦) الكشاف ٢/١٨٤ ط دار المصحف

(٤٧) المرجع السابق ٢/١١٨

فجملة (أوحاه الله الى) صفة (لو حيا) أنبأت أن هذا امر معجز لا يقدر عليه البشر لذا أسند الفعل أوحى الى لفظ الجلالة لما فيه من الأعلام بالجلال والعظمة المربية للمهابة ، قيل المراد أنه لامثل للقرآن بخلاف غيره من المعجزات وقيل المراد أنه لم يؤت أحد مثله صورة أى حقيقة ، وقيل المراد أنه لا يتطرق اليه خيال ، وقيل ان معجزات الأنبياء انقرضت أما هو فباق ، وقيل انها تشاهد بالبصر والقرآن يشاهد بالبصيرة وشتان مابينهما (٤٨)

تمكن الصفة وعدم الاستغناء عنها :

أحيانا لاتجد للكلام معنى بدونها فهى أصيلة الأفادة كما فى قوله تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » .

قال الزمخشرى ، فهذا التركيب كقوله تعالى « وهذا بعلى شيخا » فى أنه مبتدأ وخبر وحال ، ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ، ونقص خبرا ، أن يكون القرى نقص خبرا بعد خبر ، فان قلت : فما معنى تلك القرى حتى يكون كلاما مفيدا ؟ قلت : هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة فى قولك : هو الرجل الكريم .

والأمر فى قوله تعالى « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » كذلك اذ لاتتأتى الفائدة الا بذكر الصفة (من دون الله) حتى لايفهم النهى عن الأرباب مطلقا .

---

(٤٨) انظر فتح البارى ٧/١٩ .

وصف النعت :

هل توصف الصفة ؟ أجاب ابن جنى رحمه الله بأن « من خواص الوصف ألا يقيل الوصف لأنه بمنزلة الفعل والجملة ، وان كثرت الصفات فهى للأول وعلل ذلك غيره فقال « لأنه من تمام الأول فكأنه بعضه » .

وقد أجاز سيبويه : يا زيد الطويل ذو الحجة . على جعل ذو الحجة نعتا للطويل .

وقال السهيلى « ولا يمتنع عندى نعته فى بعض المواطن بعد أن يجرى النعت الأول مجرى الاسم الجامد فيكون خبرا عن مبتدأ أو من اسم جامد ، وأما نعتا محضا يقوى فيه معنى الرفع فما أراه يجوز ذلك .

وبلاغة الكلام شىء وجواز التعبير شىء أقل منه ، لذلك فالنعت للاسم الأول الا اذا اقتضت بعض النعوت تفسيرا كما فى قوله تعالى « انها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث » فجملة (تثير الأرض) صفة لذلول مبينة لها ومفسرة فكأنه قال لا ذلول مثيرة وساقية .

حذف الموصوف والصفة

فى المفصل حق الصفة أن تصحب الموصوف الا اذا ظهر أمره ظهورا بينا يستغنى معه عن ذكره فحينئذ يجوز تركه واقامة الصفة مقامه .

كقوله :

« وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع »

« ذلك أن الصفة والموصوف لما كانا كالشىء الواحد من حيث كان البيان والايضاح انما يصل مجموعهما كان القياس ألا يحذف واحد منهما

لأن حذف أحدهما نقض للغرض وتراجع عما اعتزموه .. ولأنه ربما وقع بحذفه لبس »(٤٩) .

وقال ابن جنى « القياس يكاد يحظره وذلك أن الصفة فى الكلام على ضربين :

اما للتلخيص والتخصيص ، واما للمدح والثناء وكلاهما من مقامات الاسهاب والأطناب لامن نطاق الأيجاز والاختصار ، واذا كان كذلك لم يلق الحذف به ولا تخفيف اللفظ منه ، هذا مع ما ينضاف الى ذلك من الألباس وضد البيان ، ومما يؤكد عندك ضعف حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه أنك تجد من الصفات ما لايمكن حذف موصوفه وذلك أن تكون الصفة جملة » (٥٠)

وقد شرط السهيلى لذلك شروطا فقال « يقام النعت مقام المنعوت كثيرا ان علم جنسه ، ونعت ، بغير ظرف وجملة أو بأحدهما بشرط كون المنعوت بعض ماقبله من مجرور بمن اوفى »

ومن ذلك قوله تعالى « ومامنا الا له مقام معلوم » ى الا ملك له مقام معلوم . أما قولنا : جاءنى طويل ، ورأيت شديدا فانه لايجوز وامتناع ذلك لوجهين :

أحدهما ـ احتماله للضمير فاذا حذف المنعوت لم يبق للضمير ما يعود عليه .

والثانى ـ عموم الصفة فلا يدرى الموصوف بها ماهو .

---

(٤٩) ابن يعيش ٣/٥٨

(٥٠) الخصائص ٢/٣٦٦

فان أجريت الصفة مجرى الاسم مثل جاءنى الفقيه خرج عن الأصل وامتنع ، وصار كالأسماء ، وكذلك ان جئت بفعل مختص بنوع من الأسماء وأعملته فى نعت مختص بذلك النوع كان حذف المنعوت حسنا مثل : أكلت طيبا ، ولبست لينا ، وهذا لأن الصفة تعبير عن ذات صاحبها (الموصوف بها) فكثيرا مايستغنى بها عنه ولكن ليس ذلك فى كل حال ، بل لذلك أسباب وشروط أحدها - كون الصفة خاصة بالموصوف حتى يحصل العلم بالموصوف ، فمتى كانت الصفة عامة امتنع حذف الموصوف ، قاله سيبويه ، وعبارة المبرد « حتى تتمكن فى بابها نحو مررت بظريف »

والثانى - أن يعتمد على مجرد الصفة من حيث هى ، لتعلق غرض السياق كقوله تعالى : « والله عليم بالمتقين » « والله عليم بالظالمين » فان الاعتماد فى سياق القول على مجرد الصفة لتعلق غرض القول من المدح أو الذم بها » (٥١)

وذلك وارد فى النظم القرآنى على أحسن وجوهه

قال تعالى « وحملناه على ذات ألواح ودسر » أى سفينة ذات ألواح « وهى من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدى مؤداها بحيث لايفصل بينها وبينه ، ونحوه قول الشاعر :

مفرشى صهوة الحصان ولكن قميصى مسرودة من حديد

وقوله :

وانى لأستوفى حقوقى جاهدا ولو فى عيون النازيات بأكرع

---

(٥١) البرهان للزركشى ٣/١٥٤

أراد بالأول ولكن قميصى درع فأقام الصفة (مسرودة من حديد) مقامه ، كما قال تعالى « أن اعمل سابغات » أى دروعا سابغات ، وأراد بالثانى - ولو فى عيون الجراد ٠

ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين لم يصح وهذا من فصيح الكلام وبديعه » (٥٢)

ومن اللطائف فى الآية الكريمة « أنه لو قال على سفينة ذات ألواح ودسر لحصل منه أن ثم سفينة غير المذكورة ليست بذات ألواح » (٥٣) وقيل ان ذكر الصفة دليل وايماء واشارة الى قوة صنعها وشدة احكامها ، وقيل انه كناية عن عظمة الخالق لأنه اذا حملهم على ذلك الشىء الصغير على الماء فذلك أقوى دليل على قدرته ٠

والمعروف أنه كلما قوى الدليل على المحذوف كلما عد الحذف بلاغة فليس المراد أن يصير التعبير بعد الحذف الغازا وتعمية ٠ وللسياق دور كبير ، فبه يظهر المراد بالمحذوف كقوله تعالى « ولئن رددت الى ربى ان عنده للحسنى » تقديره ان لى عنده للمنزلة الحسنى ٠ أما قوله تعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » فمما حذف فيه الموصوف لقيام الصفة فيه مقامه ٠

---

(٥٢) الكشاف ٥٦/٦ وفى ابن يعيش : اذا كانت الصفة مفردة متمكنة فى بابها غير ملبسة نحو مررت بظريف ومررت بعاقل وشبههما من الأسماء الجارية على الفعل وعند أبى عبيدة ، وانما تقام الصفة مقام الموصوف اذا تخصص الموصوف من نفس الصفة ٠

(٥٣) الأنسان الكامل للجيلى/ ط (٤) الحلبى ١٩٨١

ثم ان حذف الموصوف يوفر قدرا كبير من العناية والأهتمام بالصفة فالغرض متعلق بها « وكما يجب على البليغ فى مظان الأحمال والأيجاز أن يجمل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والأشباع أن يفصل ويشبع » (٥٤)

ومنه قوله تعالى « وذلك دين القيمة » أى الأمة القيمة ، وقوله « وعندهم قاصرات الطرف » أى حور قاصرات .

ودلالة مابقى على ماحذف هى كما قلنا شرط بلاغة الحذف « حتى لو قلت : مررت بطويل ، ولاقرينة - تدل على المحذوف ماهو - اذ لايعلم : هل المراد رمح ، أو ثوب ،أو انسان لم يجز ذلك ، الا بشاهد حال مثلا ولذلك لما قال الشاعر :

تصد وتبدى عن أثيل وتتقى بناظرة من وحش وحرة مطفل

أى خد أثيل ، وتتقى بعين ناظرة ، صح ذلك لأن الحديث عن موصوف معلوم موضوع القصيدة ينبىء عنه ومقام الحديث يدل عليه أما لغة النثر فانها تفتقد ذلك ، لذلك قال الطوفى فى الاكسير (٥٥) وأكثر مايقع هذا الضرب فى الشعر ... أما النثر فالقياس يمنعه فيه فان وقع فيه فنادر أو فى موضع خاص لائق وذلك لأن الصفة اما للتخصيص والتبيين ، أو للمدح والذم وهما من مقامات الأطناب لا الأيجاز وكلما استبهم الموصوف كان حذفه أقبح .

أما الصفات الجملية : التى تقع جملا ، فلا يجوز حذف موصوفها أصلا ، نحو « مررت بغلام وجهه حسن ، ولقيت رجلا قام أبوه ، لاتقول مررت بوجهه حسن ، ولقيت قام أبوه »

---

(٥٤) الكشاف ١/٤٢

(٥٥) الأكسير فى علم التفسير ١٨٨ ، ١٨٩

فالوصف أصله الكشف والأظهار من قولهم وصف الثوب الجسم اذا لم يستره ، ونم عليه.. وأحسنه مايكاد يمثل الموصوف عيانا ولأجل ذلك قال بعضهم أحسن الوصف ما قلب السمع بصرا ومنه فى القرآن العظيم كثير (٥٦)

وعلينا أن نعلم أن المعنى الذى يحسن حذف الصفة من أجله ، أو حذف الموصوف ليس له غاية ينتهى اليها ، ويمكن مراجعة أسباب الحذف على الجملة والتى على رأسها : طلب الأيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير فى اللفظ القليل .

وزيادة لذة القارىء والسامع بسبب اعمال الذهن فى استنباط المحذوف اذ كلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأكثر وكان ذلك أحسن ثم ان فى الحذف اثراء للغة اذ فى كثير من الأحيان يقدر المحذوف بتقديرات عدة وتفرض له صور شتى ، وهذا باب عالجته البلاغة بافاضة فى باب الأيجاز ، وحذف المسند والمسند اليه والمتعلقات وغرضنا فى هذا البحث ما يتعلق منه بحذف الموصوف والصفة

ويكثر حذف الموصوف اذا كان منادى ، أو مصدرا ، اذ من المعلوم أنك تنادى من يصح أن ينادى مثل قوله تعالى « وقالوا يأيه الساحر » تقديره يأيها الرجل الساحر ، وكذلك قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا » تقديره يأيها القوم الذين آمنوا ، وقوله « أيه المؤمنون » تقديره يأيها القوم المؤمنون .

أما المصدر فكثيرا مايعبر عنه بالصفة مكانه كقوله تعالى « ومن تاب وعمل صالحا » أى عملا صالحا ، وقوله تعالى « وقليل من عبادى الشكور » أى العبد الشكور .

---

(٥٦) الفدائد المشوق /١٨٩

(حذف الصفه)

وتحذف الصفة أيضا : (٥٧) ويقل لأنه جيء به فى الأصل لفائدة ازالة الاشتراك أو العموم واكثر مايرد للتضخيم والتعظيم فى النكرات وكأن التنكير حينئذ علم عليه كقوله تعالى . فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » أى وزنا نافعا وقوله « الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » أى من جوع شديد وخوف عظيم ، وقوله تعالى « يأهل الكتاب لستم على شيء » أىشيء نافع وقوله « يأخذ كل سفينة غصبا » أى صالحة وقوله « بفاكهة كثيرة وشراب » أى وشراب كثير فحذف من الثانى لدلالة الأول عليه » ذكره الزركشى (٥٨)

ومنه قول صلى الله عليه وسلم « لاصلاة لجار المسجد الا فى المسجد » أى لاصلاة تامة أو كاملة .

وأنواع الحذف متفاوته :

« قال ابن الشجرى : أقوى هذه الأمور فى الحذف الصلة لطول الكلام فيها ، لأنه أربع كلمات ، نحو جاء الذى ضربت ، وهو الموصول والفعل والفاعل ، والمفعول ، ثم الصفة لأن الموصوف قائم بنفسه وانما أتى بالصفة للتوضيح ، ثم الخبر لانفصاله عن المبتدأ باعتبار أنه محكوم عليه ووجه التفاوت أن الصفة رتبة متوسطة بين الصلة والخبر ، لأن الموصوف وصلته كالكلمة الواحدة ولهذا لايفصل بينهما ، والصفة دونها فى ذلك ولهذا يكثر حذف الموصوف واقامة الصفة مقامة ، والخبر دون

---

(٥٧) ربما نويت الصفة ولم تذكر للعلم بها ، ولابد أن تدل الحال عليها وقد يكتفى بنية النعت عن لفظه للعلم به .

(٥٨) البرهان ٣/١٥٥

ذلك فكان الحذف آكد فى الصلة من الصفة لأن هنـاك شيئين يدلان على الحذف الصفة تستدعى موصوفا ، والعامل يستدعيه أيضـا » (٥٩) والحال يرجع الى ذلك ، قال ابن مالك :

ومامن المنعوت والنعت عقـل يجوز حذفه وفى النعت يقـل

وقال ابن جنى « وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل. وكأن هذا انما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال: على موضعها وذلك أنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتعظيم مايقوم مقام قوله طويل أو نحو ذلك وأنت تحس هـذا من نفسك اذا تأملته وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه ، فتقـول كان والله رجـلا فتزيد فى قوة اللفظ بالله هذه الكلمة وتتمكن فى تمطيط اللام واطالة الصوت بها وعليها أى رجلا فاضـلا أو شـجاعا أو كريما أو نحو ذلك وكذلك نقول سألقاه فوجدناه انسانا وتمكن الصوت بانسـان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك انسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك وكذلك ان زممته ووصفته بالضيق قلت سألناه وكان انسـانا وتزوى وجهك وتقطيه فيغنى ذلك عن قولك انسانا لئيما أو لحزا أو مبخلا أو نحو ذلك فعلى هذا ومايجرى مجراه تحذف الصـفة فأما ان عـريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فان حذفها لايجوز »

---

(٥٩) نفس المرجع السابق ٣/١٦١ ، ١٦٢ وقال الرضى أعلم ان الموصوف يحذف كثيرا ان علم ولم يوصف بظـرف أو جملة كقـوله (وعندهم قاصرات الطرف)

وقد لخص هذا فى : عدة أقسام :

١ - نعت لايجوز حذف منعوته كقولك رأيت سريعا ، ولقيت خفيفا .

٢ - نعت يقبح حذف منعوته ، كقولك : لقيت ضاحكا وانما جاز لاختصاص الصفة بنوع واحد من الأسماء .

٣ - قسم يستوى فيه حذف الموصوف وذكره كقوله : أكلت طيبا وشربت عذبا لاختصاص الفعل بنوع من المفعولات .

٤ - وقسم يقبح فيه ذكر الموصوف لكونه حشوا فى الكلام كقولك : اكرم الشيخ ووقر العالم لتعلق الأحكام بالصفات واعتمادها عليها بالذكر .

٥ - وقسم لايجوز فيه ذكر الموصوف البتة كقولك دابة وأبطح وأجرع وأبرق للمكان وأسود للحية وأدهم للقيد وأخيل للطائر فهذه فى الأصول نعوت .. ولكنهم لايجرونها نعتا على منعوت (٦١)

عطف الصفات وتكررها :

وصف أمر بعدة صفات وارد وكثير فى اللغة الا أن ثمة خصائص بلاغية تجب مراعاتها ذلك أنه لو اقتضى الأمر الاتيان بالعديد من الصفات واستدعى الحال هذا فالاخلال عجز ، واذا صح الاستغناء بالبعض عن البعض فذكر الجميع فضل وقد كان ابن مالك دقيقا عندما قال :

وان نعوت كثرت وقد تلت مفتقرا لذكرهم أتبعت

ومن جمال تناسق هذه النعوت وجوب اتباعها لموصوفها عندئذ ففى ذلك حسن اتساق ، وسهولة فى النطق ، ووضوح فى العرض .

---

(١٠) الخصائص ٢/ ٣٧٠ - ٣٧١

(٦١) دراسات لأسلوب القرآن ق ٣/ ج ٣/ ٥٩٥

والصفات تارة تنسق بحرف عطف ، وتارة تذكر بغيره ولكل مقام معنى يناسبه فاذا كان المقام مقام تعداد صفات من غير نظر الى جمع أو انفراد حسن اسقاط حرف العطف ، وأن أريد الجمع بين الصفتين أو التنبيه على تغايرهما عطف بالحرف وكذلك اذا أريد التنويع لعدم اجتماعهما أتى بالحرف أيضا ٠

فالأصل فى باب العطف ألا يعطف الشىء على نفسه وانما يعطف على غيره وعلة ذلك أن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل وتكرار العامل يلزم معه تغاير المعمول فاذا ثبت هذا ووجدت شيئا معطوفا على ماهو بمعناه مثل قوله (كذبا وزورا) (وكذبا وميناً) فما ذلك الا لمعنى زائد خفى فى اللفظ الثانى ، أو لضرورة الشعر فيشبه حينئذ تغاير اللفظين بتغاير المعنيين فيعطف أحدهما على الآخر ، واذا كان الأمر كذلك بعد كل البعد أن تقول جاءنى محمد وأبو عبد الله وهو هو ، أو : رضى الله عن عتيق وأبى بكر ، وقد علم أن أبا بكر هو عتيق لأنك عطفت الشىء على نفسه والواو انما تجمع بين الشيئين لابين الشىء الواحد ، فان كان فى الاسم الثانى فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرا بين العطف وتركه ٠ فان عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات وهى متغايرة ، وان لم تعطف فمن حيث كان فى كل واحد منهما ضمير هو الأول فتقول على الوجه الأول زيد شاعر وكاتب ، وعلى الثانى ـ شاعر كاتب كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر ، وحين لم تعطف أتبعت الثانى الأول لأنه هو هو من حيث اتحد الحامل للصفات

فهنا معياران : الأول ، حاجة الموصوف الى ذلك ٠ الثانى ـ اتباعها لموصوفها ففى ذلك عون على ايضاحه وربط السامع والناظر به ٠ فاذا

استغنى عنها الموصوف أو عن بعضها جاز القطع ولم يجب الاتباع ولذلك مقامات وأغراض منها ارادة المدح أو الذم أو الاختصاص أو الترحم ٠

الا أنه أحيانا ماتسرد الصفات بدون عاطف بينها ، وكثيرا مايكون ذلك أيضا بذكر عاطف ٠

وهنا فان روح اللغة تقتضى أن العطف يكون عند ارادة التفضيل فى هذه الصفات ، والاعلان عن مكان كل صفة على حدة وأنها وحدة قائمة بذاتها ٠

وترك العطف يكون عند مايمكن أن تجتمع هذه الصفات فى موطن واحد وتصهر فيه أو هكذا يجب أن يكون ، المهم أن يوحد التآخى وتحدث الموائمة ان بالعطف أو بدونه فايقاع الصفات على نسق واحد هو المطلوب

ومن اللطائف البلاغية أنهم قالوا :

يقل عطف صفات الله بعضها على بعض فى التنزيل وذلك كقوله « الله لا اله الا هو الحى القيوم » لأنها أسماء له سبحانه والمسمى بها واحد فلم تجر مجرى الصفات المتغايرة ولكن مجرى الأسماء المترادفة ٠

وقوله « هو الخالق البارى المصور » وقوله « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر »

وانما عطف قوله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن » لأنها أسماء متضادة المعانى فى موضوعها فوقع الوهم بالعطف عمن يستبعد ذلك فى ذات واحدة لأن ن الشىء الواحد لايكون ظاهرا باطنا من وجه ، وكان العطف فيه أحسن من تركه (٦٢)

---

(٦٢) فى التوبة /١١٢

ولذلك عطف « الناهون » على « الآمرون » (٦٢) و « أبكارا » على « ثيبات » (٦٣) لأن هذه صفات متضادة لايمكن اجتماعها فى كل واحد بخلاف ماقبل ذلك ، من الأوصاف الجارية على الله تعالى فهى مسرودة بدون عاطف « لجريانها مجرى الأسماء المترادفة ، وفى هذا اشارة الى وحدتها وأن أبرز ما فيها هوالدلالةعلى الذات التى لا تتعدد وهذا ملحظ جيد فى الاستعمالات المبينة فقد لوحظ .. فى دوران الكلام فى الأفواه أن صفات ذى الجلال لا تجرى فى السليقة والاستعمال مجرى غيرها فاذا كان العطف قليلا فى صفات المخلوقين فانه أقل من القليل فى صفات الخالق » (٦٤)

أما فى قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير » فانما عطف فيه بعضا ولم يعطف بعضا ، لأن (غافرا) و (قابلا) يشعران بحدوث المغفرة والقبول وهما من صفات الأفعال ، وفعله فى غيره لا فى نفسه فدخل العطف للمغايرة لتنزلهما منزلةالجملتين تنبيها على أنه سبحانه يفعل هذا ويفعل هذا ، وأما (شديد العقاب) فصفة مشبهة وهى تشعر بالدوام والاستمرار فتدل على القوة ويشبه ذلك صفات الذات .

وقوله (ذى الطول) المراد به ذاته فترك العطف لاتحاد المعنى . وقد جاء قليلا فى غير الصفات كقوله تعالى « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات .. » الآية قال الزمخشرى العطف الأول كقوله « ثيبات وأبكارا » فى أنهما جنسان مختلفان اذا اشتركا فى حكم ثم

---

(٦٣) فى آية التحريم /٥

(٦٤) دلالات التراكيب ، د/ محمد أبو موسى /٢٩٨

يكن بد من توسيط العاطف بينهما ، وأما العطف الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع فكان معناه أن الجامعين والجامعات لهذه الصفات أعدلهم مغفرة » (٦٥) انتهى .

وترادف الصفات فى قوله تعالى « التابعون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » للأشارة الى أنهم الجامعون للصفات والخصال المذكورة .

ومجىء الواو فيما جاءت به للأشارة الى أنهم كاملون فى كل واحدة على حدة وسقوطها أشار الى أنها مجتمعة فيهم ، وكأنها صفة واحدة وقد ذكر الزمخشرى أن الواو فى قوله تعالى « الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار »

للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

وعليك أن تعلم أنه « ليس من الوفاء للأدب أن نقول انها جاءت من غير واو لأنه الأكثر وانما علينا أن نجتهد فى لمح شىء وراء هذا التعداد » (٦٦)

غير أن ترادف الصفات بدون واو يكثر اذا كانت لمشبه به فيترك الحديث عن المشبه وتعدد ما للمشبه به من صفات وأمر الاستطراد ذلك له بحث طويل نحب أن نفرغ له ان شاء الله

---

(٦٥) البرهان للزركشى ٣/٤٧٦ وانظر السهيلى فى نتائج الفكر /١٨٩ - ١٩١

(٦٦) دلالات التراكيب /٣٠١

المبالغة فى الصفة :

يكون ذلك بأمور عديدة منها :

١ - وصف المعانى بما توصف به الأجرام ٠

٢ - ووصف الزمان والمكان بصفة مايقع فيهما ٠

٣ - ووصف الأعراض بصفة من قامت به ٠

٤ - ووصف الأعيان بصفة مالكها ٠

٥ - ووصف الفاعل بالمصدر ٠

٦ - ووصف البعض بصفة الكل ٠

وهذا الدرس جدير به باب المجاز فى البلاغة العربية وقد ذكرناه هنا كلون من ألوان عرض الصفة فى معرض ساحر آخاذ ، فالتفنن فى عرض الصفة يكسب الموصوف وضوحا وتمييزا ، ويجعل الصفة أمرا ملحوظا يجذب الانتباه اليه ، فالمعانى غائمة غامضة موهومة متخيلة فاذا ماعرضت فى معرض الأجسام والذوات اكسبها ذلك شدة اعتلاق بالنفس وقد عقد الأمام عز الدين ابن عبد السلام (٦٧) بابا تناول فيه كل ذلك ذكر فيه أنها(★) توصف بالخروج ، والادخال ، والنزع والانسلاخ ، والكشف والخفاء ، والمس والاصابة والذوق والتمسك ، والقرب والبعد والخفة والثقل والاختلاف والتضاد والمزج والخلط والانفكاك والتجمع والصدور والورود والأفراع والملء ٠

فاقرأ هذه النصوص كما عرضها عز الدين رحمه الله

قوله تعالى « كبرت كلمة تخرج من افواههم » فيه وصف الكلمة

---

(٦٧) الأشارة الى الأيجاز فى بعض أنواع المجاز /١٠٠ - ١٠٣

قلبها حتى فاض عن القلب ووصل الى شغافه ، والشغاف غلاف القلب ٠

(★) أى المعانى ٠

بالخروج ، وقوله تعالى « كل نفس زائقة الموت » أى زائقة الم موت جسدها أو كرب موت جسدها فان الموت ينافى الذوق لأنه ضد والنفوس لاتموت وأما قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » فتقديره الله يتوفى الأنفس حين موت أجسادها .

وقوله تعالى « ذلك رجع بعيد » أى بعيد من الأمكان ، وقوله تعالى : « وقلوبهم شتى » أى مختلفة متباينة ، وقوله تعالى « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » أى وملىء قلبك منهم خوفا تجوز بذلك عن كثرة الخوف واستمراره وهو من مجاز التشبيه شبه كثرته ونواليه بما يملأ من الأجرام ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - « الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ماشئت من شئت بعد » تجوز بذلك عن كثرة تنزهه وعمومه وأنه بالغ الى حد لايحصيه محص ولا يعده عاد ، أو أنه مستحق على عباده أن يحمدوه على الدوام حمدا كثيرا مشبها فى الكثرة بما يملأ السموات والأرض ومابينهما وماتعلقت به مشيئة الرب ، وقال تعالى « قد شغفها حبا » وصف الحب بأنه ملأ قلبها حتى فاض ووصل الى شغافه .

وقد عد من المجاز البليغ .

وصف الزمان بصفة ما يشتمل عليه ويقع فيه وله أمثلة أحدها - قوله تعالى « فذلك يومئذ يوم عسير »

وصفه بالعسر والعسر هو صفة الخلاص من أهوال ذلك اليوم وهذا للمبالغة فى أمر شدته حتى انك واجد ذلك العسر عام شامل كل مكان فيه ووقت أيضا ، ومنه وصف اليوم بالألم ، والعظم وذلك وصف للعذاب الواقع فيه .

أما قوله تعالى « فيأخذكم عذاب يوم عقيم » فانه من مجاز التشبيه شبه اليوم فى انقطاع خبره بانقطاع ولاده العقيم .

ومنه وصف الأشهر الحرم والشهر الحرام بالتحريم وذلك صفه لها بصفة مايقع فيها من القتال فى مثل قوله « منها أربعة حرم » وقوله فاذا انسلخ الأشهر الحرم » « ولا الشهر الحرام » ٠

ووصف المكان بصفة مايشتمل عليه ويقع فيه ، ومنه قوله تعالى « رب اجعل هذا بلدا آمنا » وصف البلد بالأمن وهو صفة لأهله ، وقوله « وهذا البلد الأمين » وقوله « ان المتقين فى مقام امين »

وتوصف الأعراض بصفه من تقوم به كما فى قوله تعالى « يس والقرآن الحكيم » وقوله « حم والكتاب المبين » وقوله « توبوا الى الله توبه نصوحا » وصف التوبه بالنصوح وهو صفة للتائب الناصح لنفسه بتوبته ٠

وقال الشاعر

« وقصيدة تأتى الملوك غريبة » (٦٨)

وصفها بصفة مسببها:

وقد يوصف الفاعل بالمصدر وكذلك المفعول وقد قيل انه من مجاز الحذف ، وقيل انه من مجاز المبالغة فى الصفة ، ويجوز أن يكون بعض ذلك من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به كالتعبير بالأمر عن المأمور به ، وبالهزء عن المهزوء به لأنهما قولان عبر بهما عن متعلقهما ، وقد يكون بين محلى الحقيقة والمجاز تعلقات متنوعة يصح التجوز بكل واحد منهما ٠

---

(٦٨) هذا اجتزاء مما ذكره العزفى ص ٦٢ ، ٦٣ من كتاب الاشارة الى الأيجاز ٠

ومن ذلك قوله تعالى « فاحتمل السيل زبدا رابيا » معناه فاحتمل الماء السائل فحذف الموصوف وأقام الصفة وهى مصدر مقامه وأسنده اليها الفعل ، وقوله « والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع » ومعناهما والسماء ذات المطر الرجع ٠٠ والأرض ذات النبات الصادع أى الشاق الأرض وهذا قول ابن عباس ٠

ومنها قوله « انه لقول فصل » أى لقول فاصل بين الحق والباطل كقولك انه لرجل عدل اى عادل ، ولك أن تقدر محذوفا فى كل ماذكر (٦٩) ٠

ومن ألوان المبالغة فى صفة شىء : ماسماه ابن جنى بـ « غلبة الفروع على الأصول ، وعده من طى العربية ، ولاتجد شيئا من ذلك الا والغرض فيه المبالغة فمما جاء فيه ذلك للعرب قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته اذا ألبسته المظلمات الحناوس

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ، وذلك أن العادة والعرف فى نحو هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ألا ترى الى قوله ٠

ليلى قضيب تحته كثيب وفى القلادة رشأ ربيب » (٧٠)

« فقلب ذو الرمة العادة والعرف فى هذا فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وهذا كأنه يخرج مخرج المبالغة أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء وصار كأنه الأصل فيه حتى شبه به كثبان الأنقاء ، ومثله للطائى الصغير ٠

---

(٦٩) نفس المرجع ص ١٠ ، ١١ ٠
(٧٠) الخصائص ١/٣٠٠

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها » (٧١)

وعلى نحو من هذا قالوا للناقة (جمالية) لأنهم شبهوها بالجمل فى شدته وعلو خلقه قال الأعشى :

جمـالية تغتلى بالرداف اذا كذب الآثمات الهجيرا

(ومعنى تغتلى : تسرع والرادف : جمع الرديف وهو كالردف، من يركب خلف الراكب يريد أنها تقوى على السير وفوقها اكثر من راكب. والآثمات من النوق المبطئات ، وكذب البعير الهجير : أسـاء السير فيه ولم يصدقه)

وقال الراعى : « على جمالية كالفحل هملاج »

وهو كثير قلما شاع ذلك واطرد صار كأنه أصـل فى بابه حتى عادوا فشبهوا الجمل بالناقة فى ذلك فقال (هميان بن قحافة)

وقربوا كل جمالى عضه قريبة ندوته من محمضة

والعضة : حيث يرعى الحمض وهو من النبـات مافيه ملوحة وهو ما تشتهيه الأبل .

كما أن بنية الصفة لها مدخل كبير فى عظم ماتدل عليه وهو أمر تقتضيه أحوال ومقامات المبـالغة . ذكر ابن جنى تحت عنوان « قـوة اللفظ لقوة المعنى » (٧٢) أن اقتدر أقوى معنى من قولهم : قدر .

كذلك قال أبو العباس وهو محض القياس ، قال تعالى « فأخذناهم

---

(٧١) الخصائص ٣٠٢/١ ، المرجع السابق ص ٣٠٣/١

(٧٢) المرجع السابق ٢٦٤/٣

أخذ عزيز مقتدر » فمقتدر هنـــا أوفق من قادر من حيث كان الموضـع لتضخيم الأمر وشدة الأخذ .

وقد يخرج اللفظ عن معتاد حاله فاذا وصف به أفاد ذلك المبـالغة أيضا فى الصفة كلفظ طوال فى معنى طويل فهو أبلغ منه ، وعـراض فهو أبلغ من عريض وكذلك خفاف أبلغ من خفيف وقلال أبلغ من قليل ، وسراع أبلغ من سريع : مع أن فعيل أخص بالباب من فعـال لأنه أشد انقيادا منه .

وقد سرد الأستاذ عضيمة مايوصف به الاسم المفـــرد ، والجمـع واسم الجنس الجمعى وغير ذلك كثير فراجعه ان أردت (٧٢)

وقد ذكر ابن الحاجب فى الأمالى (٧٤)

أن البعض يوصف بالجملة لافادة المبـــالغة فقـد قـرىء « كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » بتنـوين قلب ، ولا يبقى على هذه القراءة الا أنه وصف القلب بقوله (متكبر جبـــار) وهـو من صفة الجملة ، وهو قريب بوجه من المعنى حسن ، وذلك أن العـــرب تصف الجزء الذى يصح نسبة ذلك المعنى له على الحقيقة كما تصف به الجملة كما تنسبه اليه كقولك : أبصرته عينى وسمعته أذنى وفهمه قلبى ومنه قوله تعالى « فانه آثم قلبه (وقلوبهم وجلة) وأشـباه ذلك ، ولو قيل انه فى الحقيقة صفته ووصف الجملة به لضرب من السقم لكان صوابا .

---

(٧٣) دراسات لأسلوب القرآن ق٣ جـ ٣ /٥٠٨ ومابعدها

(٧٤) ٣٨/١ ط بيروت

الاعتراض بين الصفة والموصوف

لما كانا كالشيء الواحد فالأصل عدمه .

وقد فصل بينهما بالفاعل ، والمفعول ، والخبر ، والمبتدأ ،ومعمول الصفة وفى القرآن الكريم جاء ذلك .

قال تعالى « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » فاطر صفة الله وفصل بالمبتدأ وقوله « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » الحق بالنصب صفة لدينهم وقرىء بالرفع صفة لله .

ترتيب الصفات اذا تعددت مختلفة :

قد ينعت بمفرد وجملة وشبه جملة فى آن واحد ، والأصل تقديم الوصف الصريح على الجملة .

ومنه قوله تعالى : « قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » ثم قال « انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشيه فيها »

« ولا ذلول صفه لبقرة بمعنى غير ذلول ، ولا الثانية لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل لاذلول (مثيرة وساقية) مسلمة أى سلمها الله من العيوب ، أو أهلها من العمل ، أو لون جلدها حتى قرنها وظلفها » (٧٥)

وقد يقدم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد

---

(٧٥) أبو السعود ٢/٧٣

ومنه قوله تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون »

جاء الوصف بالفعل قبل الوصف بالاسم لأن الاسم يدل على الثبوت فلما كانت صيغة مبالغة ، وكانت لاتتجدد ، بل هى كالغريزة ، جاء الوصف بالاسم ، ولما كانت فعل تتجدد لأنها عبارة عن أفعال الطاعة والثواب المترتب عليها جاء الوصف بالفعل الذى يقتضى التجدد وفى هذه الآية دليل على بطلان قول من قال ان الوصف بالفعل لايتقدم على الوصف بالاسم الا فى ضرورة الشعر .

وقد ورد الأمران وذلك خاضع لأحوال تتطلب أيهما يقدم . لذلك قالوا فى قول الله تعالى « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه »

كان الوصف بالأنزال آكد من الوصف بالبركة فقدم لأن الكلام مع من ينكر رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان الوصف بالفعل المسند الى نون العظمة أولى من الوصف بالاسم لما يدل الاسناد الى الله تعالى من التعظيم والتشريف (٧٦)

وتقدم شبه الجملة على الجملة ، وتأتى الجملة مقدمة على الظرف ، وأحيانا تقدم الجملة الاسمية على الفعلية ، وأحيانا أخرى يكون العكس

والملاحظ أن ذلك ليست له قوانين ثابتة الا أنه كلما كانت الصفة اكثر التصاقا بالموصوف كانت أقرب منه ، وكلما كانت ثانوية الذكر معه أخرت لأن توقف الموصوف على ذكر الصفة خاضع للبيان والحاجة .

---

(٧٦) البحر ٤/٢٥٦

وصف المضاف والمضاف اليه

يتسق المجىء بالصفة مع أيهما ويراعى فى ذلك جانب اللفظ أحيانا وجانب المعنى حينا ، وجانب الخطاب وجانب الغيبة وهما طريقان العرب .

فى المقارنة بين آية (السجدة) « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا ممنها أعيدوا فيها ، وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون »

وآية (سبأ) « فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون »

قال الاسكافى مبينا سر التعبير .

ان النار التى فى قوله فى سورة السجدة ظاهر فى موضع الضمير لتقدم ذكرها فى قوله « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » كلما أرادوا أن يخرجوا منها ، فأضمرت (أعيدوا فيها) وأظهرت (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار) أى عذابها فوقعت مظهرة مكان المضمر والتى فى سورة (سبأ) لم تجىء هذا المجىء لأنها فى مكانها مظهرة فلما كان المضمر لايوصف بعد عن الوصف ماحل محله لأنه سد مسده نوصف ما أضيف اليه وهو العذاب فجاء (عذاب النار الذى كنتم به تكذبون)

ولما لم يتقدم فى سورة سبأ ما منزلته منزلة المضمر صح الوصف له فأجرى عليه وجاء (عذاب النار التى كنتم بها تكذبون)

قطع النعت وأسرار ذلك ٠

تبعية النعت للمنعوت لون من ألوان الاتساق وسهولة النطق وفيها لذة للسامع وحسن افهام له ٠

والمنعوت اذا احتاج وأفتقر الى النعت أتبع النعت المنعوت ولو تكرر النعت ، أما اذا تعين المنعوت بدون النعت فقد قال ابن مالك

واقطع أو اتبع ان يكن معينا بدونها أو بعضها اقطع معلنا

والناعت التابع بلى المنعوت والمقطوع يؤخر ولايعكس ، وقد نبه الأشمونى على ذلك وقال اذا كان المنعوت نكرة تعين فى الأول من نعوتة الاتباع وجازفى الباقى القطع كقوله :

ويأوى الى نسوة عطل وشعثا مراضيع مثل السعالى (٧٧)

والشاهد فى وشعثا حيث نصب بفعل مضمر على الاختصاص ليبين أن هذا الضرب من النساء أسوأ حالا من الضرب الأول الذى هو العطل منهن ٠

فالغرض من القطع هنا هو الذم ٠

وقال سيبويه (٧٨) « هذا باب مايجرى من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه وذلك قولك : أتانى زيد الفاسق الخبيث ولم يرد أن يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره ولكنه شتمه بذلك ، وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا

---

(٧٧) شرح الأشمونى ٣/٦٩

(٧٨) الكتاب ١/٢٥٢

الحرف نصبا : (وامرأته حمالة الحطب) لم يجعل الحمالة خبرا للمرأة ولكنه قال اذكر حمالة الحطب شتما لها وان كان فعلا لايستعمل اظهاره »

وقد احتاط الرضي الى ذلك فوضع من الشروط مايصحح تلك المسألة حيث قال : واعلم أن جواز القطع مشروط بألا يكون النعت للتأكيد نحو : أمس الدابر ونفخه واحدة لأنه قطعيا للشيء عما هو متصل به معنى لأن الموصوف في مثل ذلك نص في معنى الصفة دال عليه فلهذا لم يقطع التأكيد فى نحو جاءنى القوم أجمعون اكتعون •

والشرط الآخر - أن يعلم السامع من اتصاف المنعوت بذلك النعت ما يعلمه المتكلم لأنه لم يعلم فالمنعوت محتاج الى ذلك النعت ليبينه ويميزه ولاقطع مع الحاجة ، وكذا اذا وصفت المنعوت بوصف لايعرفه المخاطب لكن ذلك الوصف يستلزم وصفا آخر فلك القطع فى ذلك الثانى اللازم نحو : مررت بالعالم المبجل فان العلم فى الأغلب مستلزم للتبجيل ومع اجتماع الشرين جاز القطع ، وان كان نعتا أولا ، كقوله « وامرأته حمالة الحطب » وقولك الحمد لله الحميد •

ولما كان اسم الأشارة محتاجا الى بيان يوضحه فقد اشترط عدم القطع اذا كان المنعوت اسم اشارة •

واذا كان المنعوت نكرة فلا يقطع نعتها الا اذا خصصت قبل ذلك لحاجة النكرة الى الوصف لما فيها من ابهام ولذا قيل اذا احتاجت النكرة الى ألف نعت لتخصصها لم يجز القطع اذ لاقطع مع الحاجة ، والأعرف مجيء نعت النكرة المقطوع بالواو الدالة على القطع والفصل اذ ظاهر النكرة محتاج الى الوصف فأكد القطع بحرف هو نص فى القطع أعنى

الواو ـ وتسمى الواو اعتراضية سواء نصبت النعت أو رفعته ويجوز مخالفة النعت المقطوع للمنعوت تعريفا وتنكيرا كقوله تعالى « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده » فقوله (الذى جمع مالا) مرفوع أو منصوب على الذم أو بدل ٠ (٧٠)

هل تتقدم الصفة على الموصوف

الأصل أن تتبع الصفة الموصوف لكن فى تفسير قوله تعالى : « وغرابيب سود » قال الزمخشرى : « فان قلت الغربيب تأكيد للأسود » ٠٠ ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع وأبيض يقق وما أشبه ذلك ، قلت وجهه أن يضمر المؤكد قبله ويكون الذى بعده تفسيرا له أضمر كقول النابغة :

والمؤمن العائدات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وانما يفعل ذلك لزيادة التأكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريق الاظهار والاضمار جميعا ، وقال ابن عطية « قد يقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر » وقد اشترط الرضى لذلك « أنه ان صلح النعت لمباشرة العامل اياه جاز تقديمه وابدال المنعوت منه نحو البيت السابق ٠

نفى الصفة أو الموصوف

هذا موضع طريف ذلك أن النفى لا يتوجه للذوات وانما يتوجه الى القيود ، ولكن أحيانا يوجه النفى للذات فالى ماذا يصير ؟

ونفى الشىء عن الشىء قد يكون لكونه لايمكن منه عقلا ، وقد يكون لكونه لا يقع منه مع امكانه ٠

---

(٧٩) دراسات ق٣ ج٣/٦١٤ ، ٦١٥

ومن الأول قوله تعالى « وماربك بغافل عما تعملون » « وما كان ربك نسيا » ومن الثانى ليس لى رجال يمنعوننى من الأعداء ٠

وعندما يتوجه النفى الى الذات الموصوفة فقد فسر ذلك على وجهين ـ الأول على نفى الشىء أصلا ، الثانى ـ على نفى الصفة فقط ٠

أنظر الى قوله تعالى :

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها »

قيل ضمير النصب فى ترونها عائد على عمد أى بغير عمد مرئية فترونها صفة لعمد ، ويدل على كونها صفة قراءة (ترونه) فعاد الضمير مذكرا على اسم الجمع وهذا التخريج يحتمل وجهين ٠

الأول ـ أن للسماء عمدا لاترى ٠

الثانى ـ لها عمد والمقصود نفى الرؤية عن العمد فلا عمد ولا رؤية (٨٠) ومنه قوله تعالى :

« فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » يحتمل النفى أن يكون منسحبا على القيد أى له فئة لكن لاتقدر على نصره أو يكون منسحبا على القيد والمراد انتفاؤه لانتفاء ماهو وصف له أى فلا فئة فلا نصر ٠

ومن ذلك قوله تعالى :

« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع »

احتمل أن ينسحب النفى على الموصوف وصفته أى لاشفيع فيطاع.

وأن ينسحب النفى على الوصف فقط فيكون ثم شفيع ولكنه لايطاع أى لاتقبل شفاعته . (٨٠)

« ويسمى هذا النوع عند أهل البديع نفى الشىء بايجابه وعبارة ابن رشيق فى تفسيره :

أن يكون الكلام ظاهره ايجاب الشىء وباطنه نفيه بأن ينفى ماهو من سببه كوصفه وهو المنفى فى الباطن »

وعبارة غيره : أن تنفى الشىء مقيدا ، والمراد نفيه مطلقا مبالغة فى النفى وتأكيدا له .

ومنه « ومن يدع مع الله الها آخر لابرهان له به »

فان الاله مع الله لايكون الا عن غير برهان « ويقتلون النبيين بغير حق » فان قتلهم لايكون الا بغير حق (٨١)

ومن لطائف النعت نعت الشىء بما اشتق من لفظه كقوله تعالى : « وندخلهم ظلا ظليلا » وذلك يكون للمبالغة كقولهم : ليل أليل ، وداهية دهياء .

خصيصه فى الصفة المشبهة

هذا لون من الصفة يدل الوصف به على دوام الصفة للموصوف وثبوتها ، وذلك كقولنا : هذا رجل طاهر القلب عفيف اللسان .

---

(٨٠) البحر : ٣٥٩/٥ ، ١٣٠/٦ ، ٤٥٦/٧ - ٤٥٧ .
(٨١) معترك الأقران للسيوطى ٤٢٧/١

وهذه الصفة تدل على الحدث ومن قام به والقصد منهـــا نسـبة الحدث الى الموصوف به دون افادة معنى الحدوث ، فى الأزمنة الثـلاثة ودلالة الصفة على الدوام عقلية لا وضعيه لأنها لما لم تدل على التجدد ثبت لها الدوام بمقتضى العقل اذ الأصل فى كل ثابت دوامة ، الا أن تقـوم قرينة تخصـص ذلك ببعض الأزمنه كقـولنا : كان زيد حسن الخلق فقبح . (٨٢)

والحمد لله أولا وآخرا

د. صبحى رشاد عبد الكريم
مدرس بقسم البلاغة والنقد بالكلية

(٨٢) حاشية الصبان / باب الصفة المشبهة